ابن الشعب

تأليف
موريس توريز

ترجمة
محمد عيتاني

دار بيروت
للطباعة والنشر
بيروت ١٩٥٣

obeikandl.com

الفصل الاول

طفولتي

كان ابي وجدي عاملين من عمال المناجم، فترسمت خطاهما، ونشأت عاملاً كادحاً. وكلما عدت بذكرياتي الى اعمق اعماق ماضي، طالعتني حياة العامل الخشنة: كثير من المتاعب والجهود، وقليل من السعادة؛ وكلما راجعت طفولتي، اطلت منها صور المنجم الكئيب، ومداخل مربعات الآبار، وسعي عمال المناجم المجهدين، سعياً كليلاً حثيثاً، وسيرهم المتباطيء، في عمق عدة مئات من الامتار، تحت الارض. وفي بعض الاحايين، تبلغني انات الكمان، واهازيج السباق، والحان الدوكاس (وهو من اعيادنا الوطنية، في الشمال) على هذه الشاشة الرتيبة الشاحبة، من الصور والاحداث، وعلى نحو اعظم قوة، وأبلغ جراحاً، يرتسم مرور العربات السود والخضر، الملطخة بسواد الفحم، وحمرة الدماء، ويستطيل وراءها منظر النعوش الخشبية البيضاء، المصفوفة في العنابر، ثم ارى رجالا ونساء واطفالاً، يتراكضون الى كل ناحية وصوب، ويتصادمون

ويتدافعون ، ويعودون ، دائرين على انفسهم ، في مكان واحد. ورجال الدرك يحرسون الابواب حيث تتكسر موجة من الجماهير اللجبة الصاخبة . ثم تتصل ذكرياتي ، وتتحلق ، وتتضح ، فالاحداث ادق خطوطاً ، والالوان اكثر ضياء ؛ لقد بلغت السادسة من العمر ، فقد ولدت مع القرن العشرين ، تقريباً : في ٢٨ نيسان سنة ١٩٠٠ .

في يوم مثل سائر الايام ، كنت مع بعض صبية المنجم ، فاستأثر بانتباهنا دوي أصم ، وخطى مسرعة ، ووقع حوافر بعيدة ، على بلاط الطريق ... وكان الناس يندفعون مسرعين في اتجاه واحد . فانضممت اليهم . وكان يطربني ان اعدو كالمهر ، وانحطى الشيوخ اللاهثين ، والنسوة يحملن رضعاءهن على ايديهن الهزيلة ، وكان الصراخ يتعالى :

— ذلك في كوريار ... في حفرة ميريكور ... هناك ١٣٠٠ قتيل ... وهكذا في العاشر من آذار سنة ١٩٠٦ كنت اعدو ، وسط الضباب . القاوس ، باسرع مما تحتمل ساقاي الصغيرتان ، مجتازاً الكيلومترات السبعة التي تفصل نوايل غودو عن مناجم ميريكور ، على طريق لان . وكان عمال المناجم ، في القرى المجاورة ، يتركون اعمالهم ، وينضمون الى الجماهير الزاحفة ، فالرجال والنساء والاطفال يتدافعون ويتصايحون ، ويعجن بعضهم بعضاً ، متخالطين ، منطلقين ، فكانهم جيش مدحور ، يستطيل عليه ظل الموت ...

وبلغت ميريكور ، فلم ار شيئاً في البدء . ثم تبينت موجة الجماهير وقد تحطمت على حاجز حديدي شاهق ، يتوسط جداراً طويلاً ، من القرميد ، ووراء الجدار ، كان يصطخب رجال سود ، على رؤوسهم قبعات العمل ، ويبدو عليهم انهم منهمكون في معالجة آلات غريبة ، وكانهم يصارعونها ؛ ومن بعيد ، تبدو ابراج المنجم الخشبية ، وبكرات الآبار الهادئة الجامدة ، من خلال الضباب .

وكانت تهم على المشهد المرعب ، رائحة الدخان المبتل ، ورائحة الاشياء المحروقة ... وما هي الا ان تصاعد النحيب والصراخ ، وتصاعدت الشتائم والأنات ، واخذت النسوة يقطعن شعورهن منتحبات هائمات ، وحدثت هزة . وحركت الجموع رغبة في اقتحام الحاجز ، واخذ الابواب عنوة . فهجم رجال الدرك الفرسان ، وحملوا بخيولهم على الجموع المحتشدة . ولكن هذه الجموع ، المتزايدة بلا انقطاع ، لم تتراجع قيد انملة ، ولم تتخل عن شبر واحد من الارض . وتعالت صيحات حادة ، من هنا ومن هناك :

— اخبرونا بالحقيقة ! قولوا لنا ماذا حدث! دعونا نر ! دعونا ندخل !

— زوجي في قعر المنجم .

— واولادي ايضاً .

اهلي جميعهم هنالك .

واذكر اني عدت اثر ذلك ، مع سائر الاطفال ، الى القرية ، وقد المّ بنا الجهد والهم ، فلبثنا مدة طويلة ، لا نلهو ولا نتشاجر .

وبعد ايام عدت الى ميريكور ، وكان ثمة رجال درك كثيرون . وكان الناس جميعاً يرتدون الثياب السود . وفي جميع المناجم ، وحول المساكن ، وعلى عتبات الاكواخ ، كانوا يجهشون بالبكاء ، اما الاطفال فيحفون بأمهاتهم خائفين ، ويتشبثون بثوابهن . وكان المشهد هو نفسه في القرى المجاورة ، في سالومين ، وبيلي ؛ وفي كل مكان ، تحولت العنابر الى معابد تغص بالموتى وبالصلوات . وكان الناس يتحدثون ، معبرين عن اعترافهم بجميل فرق الاسعاف القادمة من وستفاليا (المانيا) ثم سارت ، تحت الثلوج الهاطله ، تلك الجنائز الكئيبة ، ومواكب الضحايا من التعساء ...

وحركت هذه الكارثة الرهيبة البلاد من اقصاها الى اقصاها . فمنذ زمن طويل ، وشعب عمال المناجم الاسود ، يشكو تلك الاجور التي لا تعين الا على الموت ، ويشكو العمل الشاق المستعبد ، ووسائل الضمان الهزيلة ، وبدأ الغضب يهدر ويلعلع ، مهدداً الشركات . هاهم الف وثلاثمئة عامل سقطوا قتلى ، بعد ان عانوا في اعماق المناجم اهوال الفزع والاختناق ،

وذلك كله في سبيل ان تزيد ارباح الرأسماليين النخاسين .

ولم ينقض على دفن الضحايا من العمال ، الا قليل ، حتى انشأت الشركات الجشعة تطالب بمن يحل محلهم في اعماق الارض ، وكأنها تطلب ضحايا جدداً . وسرى اليأس والتمرد من كوخ الى كوخ ، وانتظم الجماهير التي نجت من الموت ، رفضٌ واحد مشترك ، واعلن الاضراب .

وسرعان مـــا اطبق على حوض المناجم جيش لا يختلف كثيراً عن جيوش الاحتلال .

وبدأت تتشكل في القرى جماعـات وفرق من العمال ؛ واحتلت الطرق مواكب غفيره ، ولم يكن شأنها شأن الجماهير اليائسة ، المدحورة ، التي رأيناها في العاشر من آذار ، بل كان ثمة رجال مقطبون ، ذوو نظرات قاتمة ، يصرخون مستنكرين ، او يتحدثون ، بأصوات خافتة ، عن اولئك الذين يرقـــدون رقادهم الاخير في المقبرة .

وكانت احدى هذه التظاهرات تندفع في الطرقات ، رافعة امامهـــا العلم الاحمر ، فاصطدمت برجـــال الدرك ، على طريق هينين ليانار ، وفي ذلك اليوم ارادت امي الذهـاب الى السوق ، وكنت في رفقتها مع اختي واخي . وانضممنا الى التظاهرة ... وفجأة حدث في المقدمة توقف سريع ، وسمعت صرخات ، وصفارات ، وهزات عنيفة تسري في الجماهير ، ثم

اشتدت المفاجأة حين بدت الخيل تشق الزحـــام منطلقة بأقصى سرعتها ...

واقترب رجـال الدرك وهم يطلقون النار ، وفصلت عن امي ، ثم أخذت في النيار ، وسقطت بين الاقدام ، وفقدت المقاومـة فانطرحت ، وكانت تمر فوق رأسي ظلال الجيـــاد العمالقة ...

نهضت وانطلقت الى فجوة باب من الابواب ، أمتنع فيها ، فرأيت عملاقـــاً يسل سيفه ويدفع مطيته وسط جماعـة من المتظاهرين ، وتشبث بعض المضربين ، بأعنة الجياد ، ولجأ البعض الاخر الى الخنادق والابواب ، وبدأت الحجـــارة تنهال على رؤوس الدركيين ، ومن بعيد ، ظهر جنود الجيش ، يشرعون الحراب ، ويؤلفون صفاً ازرق واحداً يقذف الموت والخراب...

وظل الجنود طوال النهار ، يقومون بدورياتهم في قريتنا ، فيلقون من النوافذ الى داخل البيوت نظرات وقحة . واسدلت امي الستائر ، وليثنا في البيت ، يغمرنا الظلام ، ويبلغ مسامعنا من بعيد ، صليل السيوف . واوقف كثير من المتظاهرين ، وجرح آخرون .

واستمر الاضراب مـا يناهز الشهرين ، شهرين من البؤس الفظيع ، والحرمان العـاتي ، شهرين من العذاب والنقمة؛ ذلك كان مصير عمال المنـــاجم : العمل الخانق المنهك ، والجراح

والانهيارات ، وبخار الفحم ... واذا اجهدهم البؤس فجأروا بمصيبتهم ، تدخلت القوة المسلحة لتعيدهم الى الصواب » .

وفي اثناء الاضراب بذل جدي كيمان بودري جهوده دون حساب ؛ وكان مناضلاً عمالياً قديماً ، التحق منذ الساعة الاولى بنقابة العمال التي اسسها بيلي . وكان يلذ لي الاصغاء اليه ، وهو يروي قصة حياته ومعاركه ... حياته ؟ لقد تقضّت كلها في ليل الحفر ، ولكنها كانت اسطع ضياء واصفى شمساً من كثير من السير التي مرت تحت ضياء النهار ... لأنهـا كانت تتألق بحب العـارم لنقابته والطبقة العـاملة ، وكان يملأ قصه حركات الاضراب الجديدة ، والمعـارك والجهود ، وحركات الصمود الباسل العنيد في وجه اصحاب المناجم والمصـانع ، وفي وجـه رجال الدرك والجيش ، وكانت كلها ذكريات تحملها الحماسة على جانحيها ، وتصفق فيها كما تصفق اعلام الحرية ، أسماء بيلي وغيد ولامندان .. يا لهـا من ذكريات عملت في نفسي أكثر مما عملت الاعوام ...

كان جدي يهاجم « الاخوان » الكاذبين ، هجوماً عنيفـاً ، ويخص بحملته النقابة الجديدة « السي جي تي » وهي التي نشأت لمناهضة نقابة بيلي ولامندان الثورية ، وكانت النقابتان قد دخلتا في نزاع عنيف ، وتناحر هائل ، وكان القتال ينشب احياناً بين العمال ، ولم اكن لافهم حقيقة الاسباب التي ألّبت هكذا فريقاً من عمال المناجم على الفريق الآخر . ولكنني

كنت معجباً بهذه الحياة المتضرمة ، الملأى الى اعلى درجات الامتلاء ، وبهذه البطولة التي تبذل كل يوم في خدمة المثل الاعلى للعمال . وكان جدي ورفاقه يزورون المناجم والاكواخ ، بلا انقطاع ، ودون ان ينال منهم الجهد ، باحثين عن رفاق جدد يضمونهم الى النقابة ، وكانوا يناضلون في سبيل كل انسان ، ويحاولون ان يكسبوا لافكارهم واحداً واحداً ، عمال المناجم جميعهم ، هادفين الى انتزاعهم من وهدات الجهل واللامبالاة والخضوع ، فكانوا يصطدمون ببلادة البعض ، وبخوف البعض ، وبكراهية اصحاب الاعمال وتهديدهم ، وبانقسام الطبقة العاملة ، ولكن ما كان يثنيهم عن نضالهم شيء .

* * *

كنا نسكن منزلاً يشبه المنازل العمالية برتابته واتباعه صفوفاً طويلة من البيوت ، التي كانت تضيف الى كآبة سهول الشمال كآبة سوداء ، بما تقذفه مداخنها من الدخان الاصفر والاسود ... في اوائل هذا القرن ، كانت نوايل غودو قرية لا يتجاوز عدد سكانها ٣٠٠٠ نسمة وكلهم من عمال مناجم الفحم ، او صهر الحديد ، او من الفلاحين الفقراء ...

وكان المنجم ذو الرقم ٤ التابع لشركة «دورج» يستخدم اكثر من الف عامل قبيل الحرب العالمية الاولى ...

وكان جدي يعمل في المنجم ، ووالدي في المصنع ، وسرعان

ما الم به مرض عضال لتعرضه ، مثل سائر العمال ، لبخار الرصاص ، لقد اراد ان ينجو من بخار الفحم فالتحق بالمصنع وكأنه نجا من « الحمام الى الحمام » ...

بلغت الرابعة من عمري ، فدخلت مدرستي الاولى . وفي العام الثاني حدث لي حادث عظيم ، أول مرة في حياتي . فقد ألقيت خطاباً امام كثير من الناس ، ولكن كان ذلك — طبعاً — في حفلة اطفال ، وبمناسبة عيد مدرسي .

كنت احيا في البيت كما اعتاد امثالي من ابناء العمال ان يحيوا . فما ان يشب الطفل عن الطوق ، ويبلغ سن الرشد ، حتى يتحتم عليه معونة اهله . وسن الرشد يلم مبكراً بابناء الشعب .

وكان لنا اجر والدي ، وجنينة صغيرة ، وعشرون ارنباً ، تعتمدها امي للأنفاق على اسرتنا ؛ واحتفظت لي بالمهمات السهلة : فكنت انطلق الى الحقول ، لاعود بالعشب للأرانب ، واذهب الى السوق ، لاشتري بعض حوائج المنزل ، واجمع السماد من الطرقات للجنينة ، وكان علي — ايضاً — ان أعنى باخواني الصغار ...

وكان يتخلل شقاءنا اليومي بعض بوارق الفرح : وهي ايام الاعياد وعيد الدوكاس الوطني بخاصة . آه ما كان اعظم لهفتنا في انتظار الدوكاس ، اذ نستبق موعده بزمن طويل ! وما ان

تبدو عربة العيد الاولى حتى نفقد الصبر . وعند خروجنا من المدرسة ، كنا نسارع محتشدين لمشاهدة العاب الخيل ، ومباهج العيد . وكان اكثرنا جرأة يلمس أنوف الجياد الخشبية ، ويشدها من ذيولها . وهي ذيول من شعر الخيل الحقيقي ! وما اسعد من كان في جيبه فلس ليمتطي الجواد الخشبي مرة ! وكم كانت سعادتنا بسماع الالحان الموسيقية ، ودوي طلقات الرماية ، وصرير دواليب الياناصيب ، وتجاوب ابواق القرية ، واغاني الشاربين المرحة... لقد كنا نعيش يوماً او يومين في حمى السعادة الغامرة ... ثم تستعيد الحياة مجراها الكئيب ...

وكان يشغل اسرتنا ما يشغل جميع اسر العمال ، وكانت الاحاديث في بيتنا تكاد ان تنحصر في الصعوبات المادية ، فالاسعار ترتفع بلا انقطاع ، وفي ايلول ١٩١٠ نشأت حركة تكافح غلاء الاسعار في حوض المناجم .

وكانت ربات البيوت يركضن من باب الى باب ، ويهيئن الرأي لانتفاضة شعبية نسائية . وكانت امي من اشدهن حماسة . وقد عينت ، في احد الاجتماعات ، مندوبة عن نساء نوايل غودو .

وسارت تظاهرة كبرى في طرقات البلدة ، يتقدمها العلم الاحمر وهي تطالب بـ :

— الزبدة بـ ٣٠ فلساً الكيلو .

– واللبن بـ ٥ فلوس

– والبيض بـ ٢٦ فلساً الدزينة .

وكانت المتظاهرات ينطلقن من حانوت الى حانوت ليطلبن الى التجار التقيد بهذه الاسعار .

وازمعت ربات البيوت يوماً الذهاب الى سوق هينين لياتار . وما إن وصلن حتى نشبت المنازعات بين البائعين والشاريات . وقلبت احداهن واجهة للبضائع . وكانت شارة الهجوم . وتطايرت في الهواء من كل ناحية ، حبات الجزر واللفت والبطاطا والثمار ! اما نحن الصغار ، فكنا نقفز في سلال البيض واقدامنا مجتمعة . واشتركنا في المعركة ، وكانت طلقاتنا مؤلفة من كل ما يقع في ايدينا من بقايا هذا التخريب المرح ، لجميع الطيبات التي كانت تعز على جيوبنا ...

وما كان لنا ان نفهم يومئذ ، ان المسؤولين الحقيقيين عن ارتفاع الاسعار ، هم كبار الرأسماليين ، وتجار الموت الذين يكنزون الذهب والفضة ، اولئك اللذين نجحوا في تحويل نقمة المستهلكين وغضبهم الى صغار التجار واصحاب الحوانيت والباعة المتجولين .

* * *

وبلغتُ السن التي يبدأ فيها ابن العامل يكدح عند الآخرين ليعود على أهله ببعض الدريهمات ...

وكان الفلاحون في القرية يستأجرون الصغار لشرْيفة الحقول. كنا نمضي في الحقول ، جماعات جماعات ، وآلة الشَرْيفة في ايدينا ، متباعدين بعضنا عن بعض مسافة مترين ، وعيوننا مثبتة الى الارض ، لنقطع الاشواك المضرة والاعشاب الطفيلية، وكنا ننطلق طوال النهار من شروق الشمس الى غروبها ، مستغرقين في اعمالنا ... وكان صاحب المزرعة يراقب هذه الاعمال فيما بعد... وكان العامل الصغير منا يكسب ١٤ فلساً في نهار عمل مؤلف من ١٢ ساعة .

كان يصاحب دراستنا ، في معهدي الاول ، تعليم ديني ، ولم يكن اهلي يهتمون كبير الاهتمام بالدين . ولكن كان من عادة العمال ان يعتمدوا الاطفال وان يتناول هؤلاء القربان المقدّس . وكان الكاهن قد اختارني شماساً ، ومرتل جوقة ، فأعاني هذا الاختيار على توفير بعض الفلوس لاهلي .

وافتتحت في تموز ١٩١٢ مرحلة جديدة من مراحل حياتي ، اذ قدمني استاذي السيد افيرلان الى امتحانات الشهادة الابتدائية، فكنت الاول بين الناجحين ، وهكذا اتيح لي ان ابدأ العمل في المنجم قبل بلوغي الثالثة عشرة .

دخلت المنجم عاملاً في تنقية حجارة الفحم، في الحفرة رقم ٤ ، ولم يكن عملي شاقاً ولكنه كان يتطلب انتباهاً شديداً . وكان الفحم يصل الينا على لوحة معدنية كبيرة ، وكان علينا المسارعة

الى نزع الحجارة منه وكان عامل التنقية الماهر يتوصل الى كسب ٢٥ — ٣٠ فلساً في النهار .

وفي الرابع من كانون الاوّل ، كان عمال المناجم يحتفلون بعيـــدهم التقليدي وهو عيد السانت بارب . وفي الاسبوعين الاخيرين من تشرين الثاني، كانوا يعملون خلال ساعات اضافية، ليزيدوا في مكاسبهم . وكان من الطبيعي ان اقتدي برفـــاقي العمال، فربحت خلال الاسبوعين ثلاثين فرنكاً بمعدل ١٢ — ١٣ ساعة عمل يومياً .

وفي تشرين الثاني ١٩١٣ ، حين عاد اسبوعا السانت بارب ، اعلن العمال الاضراب . وقد سمي هذا الاضراب باسم العيد . وكانت نقابة بيلي القديمة قد اندمجت في نقابة السي. جي. تي. ولم يستمر الاضراب المشترك طويلاً ، ولم يتجـــاوز بضعة ايام . وانتصر العمال واضطر اصحاب العمل الى التقيد بمدة الـ ٨ ساعات للعمل اليومي في اعماق المناجم .

وكانت عناصر اللهو والتسلية قليلة في القرى ، فانضم كثير من الفتيـــان الى الفرقة الموسيقية البلدية ، وتعلمت انا النفخ في البوق . وكنا نعتمر بقبعات رسمية جميلة ، ونمر صفاً صفاً في الطرقات ، عازفين اعذب الالحان ، وكنا نرتحل احياناً الى القرى المجاورة والمدن ، لنقدم هناك اغانينا ، ونطرب سكانها بروائعنا .

وهكذا كانت فرقة الموسيقى البلدية تتيح لنا بعض الرحلات السعيدة ، وبعض السيـــاحات الى شواطيء البحر ، وما كانت تكلفنا الا حضور التجارب ، والنفخ في الابواق...

وفي اواخر حزيران ١٩١٤ اعلن رئيس الفرقة ، بعد احدى هذه التجارب ، نبأ مؤامرة سيراجيفو . واحس البعض بخطر الحرب ، ولكن اكثرية الناس كانت لا تؤمن بامكان وقوعها :

ـ « الحرب ؟ ليس ثمة من حرب ! فهي مستحيلة في عهدنا الراهن ! فان نشبت فلن تستمر اكثر من شهر ، بسبب الوسائل التي تستخدمها الجيوش الحديثة... وسيفنى الناس جميعاً..

وفي يوم السبت الاول من تموز ، اعلن النـاطور ، بجرسه ، النفير العام . وتجمعت الجماهير امام الاعلانات ولوائح الاسماء ..

وفي اليوم الاول ذهب عمي ليون . ولم اره بعد ذلك . واعلن فقده سنة ١٩١٥ في « بوسيجور » . وجرح عمي الآخر ادمون ، في الاسبوع الثالث من الحرب ، في معركة مورانج ، وأسر ثم عمل في مناجم سيليزيا ومات في الاسر .

بعد اعلان نبأ الحرب ، تابعنـا العمل في المنجم عدة ايام ، ولكن كان عدد العمال يتدنى كثيراً ، ثم توقف كل شيء ، وتلقينا الاوامر باخراج ادوات العمل من المناجم ...

واستبد القلق بالقرية كلها . وكانت الانبـاء سيئة جداً . وكنا نظن في البدء ان الحرب تجري بعيدة عنا ، على بعد مئات

من الكيلومترات نحو الشرق ، في الالزاس واللورين ... ولكن اكتساح الالمان بلجكا ادهشنا واذهلنا . فقد سقطت قلاع نامور وليـاج في ايدي الالمان ، وكنا نعدُّها امنع من ان تؤخذ .

وفي ذات صباح سمع دوي المدافع ، واعلنت رؤية دورية من الفرسان الالمان ، وكان ذلك في ٢٦ حزيران ، وفي اليوم التالي مرت الجيوش الالمانية في اتجاه لان .

وفي ٣٠ ايلول كان سبـاق الجيوش الى البحـر مستمراً ، فتركت نوايل مع جدي ، وكانت السلطات تجند جميع الرجال الذين تتراوح اعمارهم بين ١٨ و ٤٨ عاماً ، بل جميع القادرين على حمل السلاح . فأزمع ابي وجدي النجـاة بنفسيهما ، وكان عليّ ان اصحبهما ، وزودتني امي بأربع قطـع من النقد ، من فئة المئة فلس ، وضعتها في كيس ، ودسسته في ثيابي . وكانت امي موقنة بانهـا لن تلبث الا قليلاً حتى تراني ، واراد ابي ، قبل مغادرته البيت ، ان ينزل محصوله من البطاطا الى القبو . وتواعدنا على اللقـــاء في بون افندان ، وهي اول مرحلة على طريقنا ، ولكن هذا لم يكن ممكناً. فبعد ساعات من مغادرتنا القرية احتلها الالمان ، وكان عليّ ان انتظر اربعة اعوام للقـاء اهلي .

ولبثت طوال هذه المدة دون ان اتلقى شيئاً من انبائهم ، وهم ايضاً لم يعلموا شيئاً عن مصيري ؛ اما قريتنا ، وهي واقعة

على حدود المنطقة المأهولة ، وراء الجبهة الالمانية مباشرة ، فقد تحولت الى خرائب ، عند نهاية الحرب ...

وهمت مع جدي شهراً كاملا ، في الطرقات ، يدفعنا مد الجيوش وجزرها نتأرجح بينهما في الآفاق . وتعرفنا الى كل ناحية في البادي كاليه والشمال ، وآرمانتيير ، وسان بول ، وباتون ، ثم كنا نعود ، دائماً ، الى تلك الامكنة لا نريد مبارحتها ، وكانت الحرب تطردنا منها بلا انقطاع ... وكان رجال الدرك يطاردوننا ، ويدفعوننا ، قاطعين علينا الطريق الى منطقة الجبهة ، ولكننا نعود ، فتلك المنطقة الدامية المكتسحة ، المنقلبة رأساً على عقب ، كانت رغم ذلك كله وطننا .

كنا اذا حل الليل ، ننام في مخازن المؤونة ، ونغتذي بالبطاطا التي نقتلعها من الحقول . وكان الجنود الانكليز الذين نصادفهم في الطريق ، يقاسموننا ما معهم من اللحم المحفوظ . ولجأنا يوماً الى عامل مناجم اشتراكي ، ولبثنا في ضيافته عدة ايام .

لقد عرفت الحرب : لا حرب اللوحات الزيتية وملاحم الشعراء . لا حرب قصائد « ديروليد » الحماسية ، بل الحرب الفظيعة ، ملتهمة الرجال ، وزارعة الرعب والموت...

الحرب التي عرفتها هي الحرب الحقيقية : المنزل المفقود ،

وحياة التشرد في الطرقات ، بلا سقف يُفاء اليه ، ولا خبز ولا مال ولا عمل ، انها المدفع النمساوي الرشاش واعقاب البنادق في ايدي رجال الدرك الغلاظ... الحرب التي عرفتها ، هي الجنود القتلى المساكين الممدّدين في الحفر على جوانب الطرق قريباً من جثث الجياد... الحرب... هي الحقول المهجورة، والقرى الكئيبة الخالية، والبيوت المتناثرة الاحشاء.. وعربات الاسعاف الملأى بالجرحى والمحشرجين... والحرب ، بخاصة ، هي ذلك السيل الطويل، الممتد بلا انقطاع ، ولا نهاية ، يظهر فجأة على الافق المشتعل بحمرة الحرائق ، هذا النهر الذي يجر في تياره النساء والاطفال والشيوخ ، مع عدد لا يحصى من الاكياس القذرة الملأى بالخبز اليابس العفن، او هذا النهر الذي يدفع امامه العربات الملأى بالاثاث المخلع الحقير ، والفراش المتناثر صوفه ، والوسادة الهزيلة... حين تنتحب النساء ، والاطفال يتشبثون باذيالهن ، وبعضهم يغمغم بكلمات غير مفهومة... لا تتغير... والشيوخ يقضمون الخبز اليابس ذاهلين.. في تلك الايام اقسمت على النضال بجميع ما اوتيت من قوة ، وكفاح هذه الكارثة الانسانية البشعة ، ومناضلة اولئك الذين يعيشون لها ظروفها ويعيشون منها ويتاجرون..

لقد اقسمت على الدفاع عن الشعب ، وهو الضحية الخالدة للحروب...

* * *

وفوجئنا يوماً بين نو ـ ليه ـ مين وفركان ، بلعلعة المدافع الرشاشة ، ونظرت فاذا نحن في غمرة المعركة ، فايقظت جدي النائم في فجوة بين الصخور على الاوراق اليابسة ، وانطلقنا في الظلام المخطط ببروق الموت .

كنت قد انفقت قطعتين نقديتين من القطع الاربع التي زودتني بها والدتي ، وكنت احمل القطعتين الباقيتين في كيس علقته بعنقي.. ويوماً لم اعد اشعر به، فتحسسته فاذا به ممزق... هكذا فقدت كل ثروتي !

واخيراً قبض علينا رجال الدرك ولم يعبأوا بصياحنا واحتجاجنا بل قادونا في اول الامر الى سراي اوشل ثم «عبأونا» في سيارات كبرى ، مع مساكين آخرين، مجمعين عن الطرقات، وبلغت السيارات بنا بلدة سان بول ، وهناك كوّمونا في مركبات لشحن البضائع، ـ وكنا ثمانية جياد واربعين رجلاً ـ واهتز القطار وتحرك في بطء ووجهته اواسط فرنسا . ولم أنفصل عن جدي ، بل كنا مندفعين الى المجهول جنباً الى جنب، وكانت القطارات تمر ملأى بالجنود ، لقد تركنا الجبهة وراءنا ولكن الحرب كانت ماثلة لعيوننا وكأنها تتعلق بنا...

بعد رحلة استمرت خمسة ايام طويلة حسبنا انها لن تنتهي ، توقف قطارنا في غيريه ، في « الكروز ». وبلغناها في الثاني من تشرين الثاني وكان « يوم الموتى » ، ثم اتجه قطارنا على خط ضيق وكان يترك في كل محطة بعض ما في جوفه من لاجئين ، ونزلنا

انا وجدي في محطة جينوبا ، واقتادونا مع سبعين لاجئاً آخر الى مديرية كالونيا .

وفي القرية افردوا لنا بيوتاً وجعلوا كل اربعة لاجئين في غرفة . وكان السكان يعطفون علينا غاية العطف ، فيجهدون ليجعلوا منفانا اخف وطأة وارحم داراً .

كانت تلك البلاد رائعة الجمال . فهي مكسوة بالغابات ، كثيرة التلال والوديان . كانت رباها ضاحكة مشمسة تتفجر منها زقزقة العصافير ، وخرير الينابيع ، وكانت تؤلف تناقضاً ظاهراً مع سهول الشمال الكئيبة الغائمة .

وحل الشتاء مطيراً بارداً . فلم يكن ملائماً للنزهات الطويلة والرحلات ، فقصدت الاستاذ سيليريه في كلونيا ورجوته ان يجعلني في عداد تلامذته . وكنت قد تركت الدراسة منذ عامين ؛ رضي الاستاذ سيليريه ، وهكذا استأنفت الدراسة .

شجعني سيليريه اكبر التشجيع ، واذكى نشاطي وحرك همتي للعمل . وفي شهر آذار ١٩١٥ قدمني الى مسابقة عامة فنلت الجائزة الاولى في الانشاء . وكان الموضوع : « اي شأن من شؤون الحرب استأثر باهتمامك دون سواه » فما كان عليّ الا ان اروي ذكرياتي .

اعجب السيد سيليريه بنجاحي ، ولعله وجد فيه مادة للفخر ، فأراد ارسالي الى « غيريه » لكي اتم دراستي ، وكان يرى ان

الحظ قد يسعدني فأصبح معلم مدرسة او استاذاً في كلية ، فرفضت ، لقد كانت الدراسة تعجبني ولا شك ، ولكنني كنت واثقاً ، رغم ذلك ، بأن الخرب لا تلبث ان تنتهي ، وان بوسعي بعد ذلك العودة الى نوايل غودو ، حيث التقي ذويّ ؛ وكانت هذه الافكار تدفعني للعمل في سبيل كسب بعض المال .

كان جدي يعمل في مزرعة ، امـا انا فقد رضي احد المزارعين بأن اعمل عنده خادماً . وكنت اتناول شهرياً ١٨ فرنكاً في الصيف ، وثمانية فرنكات في الشتاء ، مع الغذاء .

في تلك الايام نشأت معرفتي بالفلاح . لقد كنت اعرف العامل وحياته البائسة ومصيره القاتم ، وشجاعته في العمل ، وكرمه وبسالته ، الم يكن جدي امام عيني ، مثلاً دائماً ونموذجاً صالحاً ؟ وحين رأيت الفلاح الفرنسي ، عن كثب : اعجبت بفضائله الثابتة ، وعناده الباسل ، ونشاطه ، وحسه المرهف ؛ كان الفلاح اخاً للعامل ، اخاً بائساً مثله ، يعاني الاستثمار والاضطهاد مثله ايضاً ، ومثله كان ضحية معتادة لمجازر الحروب .

كنت انهض مع الفجر ، فاعتني بالماشية ، وانظف الاسطبل واقود البقرات الى المرج .

وعند حلول الموسم تعلمت الحصاد ، فكنت اقطع سنابل

القمح والذرة ، بالمنجل ، واجمعها في حزمات . وكان عليّ ان اقتلع البطاطا والشمندر من الارض المبتلة بأمطـــار الموسم ، وان اعمد الى الحراثة في الخريف وتمهيد الارض لبذر القمـح . ثم حل موسم الاعمـال الزراعية المتعددة : وكان الفلاحون ينطلقون ، واصابعهم تكاد تتجمد من الصقيع ، للاحتطـــاب من الادغال ، وربط الحزمـات ، واقتلاع الاعشاب اليابسة ، وحوالي اواخر الشتاء ، كنـا ننزع الاوراق عن العوسج ، ونقطع اغصان السنديان ، وننظف الحقول من الاوراق اليابسة ، وكنا نلبث ، امد الايام الممطرة ، في العنابر ، لكي نصلح من شأن الادوات الزراعية ، كالعربات الصغيرة والمعـــاول ، والمناجـــل والمذاري الخ ... وفي السهرة كنـا ننزع قشور الكستناء ، فالكستناء مع اللبن الصرف ، كانت طعام عشاءنا...

وتعرفت الى جميـع اهل القرية ، واكثر سكان القرى المجاورة ، وكانوا جميعاً يعيشون حياة بائسة الى ابعد حدود البؤس ، عدا بعض المزارعين الموسرين ، وهم قلة . ومـا كان الفلاحون في تلك القرى يعرفون للحم طعماً ، اما ثيابهم فمهلهلة لا تقيهم زعازع الشتاء .

وخلال سهرات الشتاء الطوال ، كانت الاحاديث والمطالعات الكثيرة تذكي فضولي ، وتوقظ ادراكي ، وتستعجل نموي .

وكانت مقاطعة « الكروز » ولا تزال في طليعة المقاطعات وعياً وادراكاً . وكان ترتيبها في عام ١٩١٤ انها اولى المقاطعات

حيث تغلب اصوات الاشتراكيين. وكانت الافكار الاشتراكية فيها واسعة الانتشار، وكان مناضلوها ملتهبين حماسة واندفاعاً، فتراهم دائماً في طليعة الحركة الشيوعية، وكان الفقراء من السكان، اولئك الذين لا ارض لهم، يذهبون الى باريس، ليقضوا فيها شطراً من العام، عاملين في البناء، ثم يعودون الى مقاطعتهم ليعملوا في الارض زمناً آخر، او يحوكوا على انوالهم الصغيرة. وكان هؤلاء العمال البناؤون اثناء اقامتهم في باريس يتمرسون بالسياسة وينخرطون في النقابة، ويطالعون الصحافة العمالية، ويشاركون في الاجتماعات او ينضمون الى الحزب الاشتراكي، وكانوا لدن عودتهم الى القرية، يتابعون تطور سياسة البلاد، من الناحية النقابية والعمالية، ويطلعون على الصحافة الثورية، ويشركون فيها سائر عمال البلاد وفلاحيها.

كان سيدي يطالع جريدة «الاومانيته» (الانسانية) التي كانت تصدر يومئذ بادارة «رونوديل» وكان الاب ميناجيه، وهو عامل معمار، ذو عشرة اولاد وميول ثورية، ينادي دائماً بان مصالح العمال تقضي بوضع حد للحرب، لانها لم تكن ناشبة للدفاع عن الوطن، بل انها كانت صراعاً بين لصوص وقاطعي طرق رأسماليين، يريدون زيادة اراضيهم وارباحهم، بعضهم على حساب بعض، ويتعاركون في سبيل اعادة توزيع المستعمرات. وكان مناجيه يشير الى خطب جوريس ونبوءاته ضد الحرب العدوانية على الشعب العربي في

مراكش ، وكان يردد قول الخطيب العظيم : (تحمل الرأسمالية في كيانها الحرب ، كما تحمل الغيوم العاصفة » .

وكان ميناجيه يهاجم فكرة « الحرب الى النهاية » ويفضح اهداف الحروب الاستعمارية ويدعو العمال والفلاحين الى المطالبة بسلم سريعة دون قيد ولا شرط... في تلك الايام العصيبة حدثني ميناجيه عن « زيمروالد » و« كيانتال » ، وهما قريتان صغيرتان ضائعتان في مجاهل الجبال السويسرية ، ومنهما ارتفعت ، اول مرة ، بين سنتي ١٩١٥ — ١٩١٦ ، ومن خلال دخان ميادين القتال الخانق ، ارتفعت اصوات فئة مجيدة من الاشتراكيين من بينهم لينين والبلاشفة ، المخلصين للاممية البروليتارية العمالية وللثورة .

هكذا تضافرت ذكرياتي والمناقشات التي كانت تدور في السهرات ، والانباء التي تبلغني ، عن الجهود الاولى لاعادة تنظيم الحركة الاشتراكية ، فأدت بي الى اتخاذ موقف حاسم ضد الحرب ، يزداد قوة مع الايام . فكنت اقرأ كل يوم صحيفة « الشعبي » حيث كان يعتبر حزب « الاقلية الاشتراكية » عن افكاره .

كنا على مئات الكيلومترات من الجبهة ، ولكن الحرب كانت ماثلة امامنا ، فهي تضاعف الضحايا من حولنا ، وتضاعف ثواب الحداد ، وتزيد في الآلام ، وتحصد ازهار شبيبتنا ، وكان جدي قد فقد ولدين في الحرب ، وكان يحرم

نفسه الضروريات ، ليرسل كل يوم أحد رزمة من الطعام لولده الآخر الاسير . فهو لذلك يؤمن بضرورة النصر اما انا فكنت اعارض بشدة ، كل ما يؤدي الى اطالة عمر المجزرة .

كنت متعطشاً الى المعرفة ، ولذلك كنت اقرأ كل ما يقع بين يدي . فالتهمت كتب جول فرن ، ودوماس الاب ، وكتابي «البؤساء» و«العاملين في البحر» لفيكتور هيجو ، وجرمينال والارض والمال « لزولا » وجاكو المفترس لأوجين لوروا والمتمرد لجول فاليه ، وقد اعارني السيد سيليريه هذه الكتب كلها .

اما كتاب « عشرون الف فرسخ في اعماق البحار » فقد ألهب خيالي ، وكنت اعجب بطباع القائد نيمو — بطل هذه القصة — اكثر من اعجابي بمغامراته الخيالية . وكان يمثل في نظري عبقرية العلم الخارقة المجهولة التي تنتصر على كل شيء ، عبقرية العلم التي ستغير الكون والناس حين تغدو حقاً في خدمة الشعب .

ثم تحولت الى كتاب « الكونت دي مونت كريستو » ، واكبر ما اعجبني في هذه القصة دور المال في المجتمع ، واهميته القصوى ، فبعد اكتشاف الكنز ، اصبح دانتيس انساناً كاملاً ، وموجد عدالة ...

وكنت احب ايضاً طيبة جان فالجان ، ضحية مصيره الغاشم وكان في البؤساء ، بخاصة ، شخصية غافروش ، غافروش

العجيب ، الذي يتحدى الجيش من خلال الحواجز والبيوت ، غافروش الصعلوك الذي كان يغني ، فترتفع اغنيته لتطغى على طلقات البنادق ...

وملأني وصف البحر وصراع جيليات في كتاب « العاملين في البحر » حماسة ونشوة ، وكان الهدير الوحشي يبلغني من خلال صفحات هيجو الملهمة ...

ومرت الاعوام ... وجدي يعاني كآبة الوحدة ، في عزلته بالريف ، بعيداً عن موطنه القديم ، وهو على رغبته الشديدة في ثأر ساحق ماحق ، وهزيمة نهائية يمنى بها الاستعمار الالماني ، دفع رغبته في رؤية غليوم الثاني « المحتال » مشنوقاً ، فقد كان — مع ذلك كله — يتمنى سرعة انتهاء الحرب ليعود الى بيته وأهله ، وخانه الصبر ، ولم يبق في وسعه الاحتمال ، فأزمع مغادرة « الكروز » ، والدنو من الشمال . وفي الثالث والعشرين من آذار ١٩١٧ ، ركبنا القطار من بوساك ووجهتنا باريس .

ورأيت باريس اول مرة ، في غمرة الحرب . وكان الالمان على بعد ٧٠ كيلومتراً من العاصمة ، والطائرات الالمانية تحلق في سمائها من حين الى حين ، ملقية قنابلها ؛ وكان جو العاصمة متوتراً كئيباً ؛ وذهبنا الى مركز اعاشة اللاجئين ، القائم في اكواخ حقيرة خربة ، وفي المساء رحلنا الى اميان . ووجدنا عملاً في دروي لي اميان ، في منشرة للخشب ، حيث

كان يعمل ايضاً قريب لنا لاجيء مثلنا من الشمال .

صعدنا الى مركبة القطار مع جنود عائدين الى الجبهة ، بعد انقضاء ايام عطلتهم ، وحطابين يقصدون العمل حيث نقصد . وكانت الرحلة فظيعة بائسة ، فالجنود سئموا الحرب ، وانتابهم القرف واكثر من القرف ، وكان اكثرهم يتمنى « الجراح البليغة » التي تتيح له النجاة من ذلك الجحيم .

وفي بلدة دروي طلب الينا برونيل صاحب العمل ان نقود سفينة صغيرة لنقل الخشب ، وكانت تسمى « فرنسا » فكنا ننتقل بها بين كوربيار وابفيل ، طوال نهر السوم ، موسوقة بالخشب ...

وسرعان ما تعلمنا الامساك بالدفة ، ورمي القلس الى قائد الجياد التي كانت تجر سفينتنا ، واستخدام المرساة ، والاشراف على وسق السفينة ، وكنا نرقد في غرفة صغيرة ، ونتناول طعامنا على متن المركب ، فان لم اكن يومئذ لا القائد نيمو ولا البطل جيليات ، فقد حققت على الاقل شطراً من الحلم الذي كونته لدن قراءة « المتشرد » لهيكتور مالو : وهو ان أجتاز فرنسا من اقصاها الى اقصاها على بيت عائم ، واتعرف الى وجوهها المختلفة ..

ما اشد اختلاف اراضي بيكارديا الخصبة ، التي يجتازها نهر السوم عن تلك التلال الغرانيتية في الكروز ، فهنا على ضفتي

النهر ، وبخاصة في جوار اميان ، تمتد الجزر الصغيرة الخصبة ، والملاحون ينتقلون في مراكبهم المستطيلة الموقرة بجميع انواع الخضار والثمر . فالارض ثة غنية ولود ، وتصورت ان سكان ارض كهذه ، يجب ان يكونوا جميعاً اغنياء موسرين ، ولكن سرعان ما خاب ظني ، فلقد وجدت هنا البؤس الذي طالعني في كل ناحية من نواحي فرنسا .

وكان في تلك المقاطعة ، الى جانب الزراعة النهرية التي تمتد حقولها طوال ضفتي النهر ، مختلفة الالوان ، صناعة النسيج والقطن والمخمل والخام ، ولكن الثروات الفاضحة ، كانت تتكدس في خزائن اصحاب الاعمال ، وتبنى على افظع انواع الاستثمار البشري ، وكان جميع سكان وادي السوم ، المجدون في اعمالهم ، يكادون يختنقون تحت اعبائهم الباهظة الثقيلة ، ويتكدسون في المصانع بالآلاف. وكنت تجد في ضاحية اميان كثيراً من النساء اللواتي يعملن في بيوتهن ، بشروط قاسية ان لم نقل بميتة . وما كان اجر العامل ليتعدى الاربعين بارة في اليوم ، وحين قارنت حياة عمال المناجم في الشمال ، وحياة فلاحي الكروز ، بهذه الحياة البائسة في حوض السوم ، ظهرت لي تلك ، على صعوبتها ، اخف وطأة ، وارحم مصيراً .

كان الاب والام في حوض السوم (والاولاد عند بلوغهم سنّ العمل) يذهبون جميعاً الى معامل الحياكة والنسيج ، وكانوا يعمدون يوم الاحد الى طبخ كمية كبرى من الحساء ،

في جفـــان ضخمة ، تكفيهم طول الاسبوع ؛ فربة البيت لا يسعها ، وهي منهمكة في العمل ، ان تعمل ايضاً في إعداد الطعام . وكانت احياء المدن والقرى والحقول الغاصة بالسكان تزخر باسراب من الاطفال المتشردين الشاحبين ، بين كسيح ومصدور . وكان عدد الاطفال المشوهين مرتفعاً جداً ، وكان شطر كبير من السكان العاملين ، يجد في المسكرات متنفساً لآلامه ، وارضاً تهبه السلوى والنسيان .

وفي حزيران ١٩١٨ عينت في مكتب لفحص المجندين ، فكنت اجد بين كل خمسة عشر رجلاً من « دروي » ثلاثة عشر صالحين للخدمة ، اما في حوض السوم فكان المعدل ثلاثة رجال فقط . وكان هذا اوضح دليل على وقوع تلك المنطقـة ضحية استثمار لا نجد مثله في كل المقاطعات الفرنسية .

كانت المشكلة الاجتماعية ترتبط ، اكثر فاكثر ، في ذهني، بمشكلة الحرب ، فالضحـايا هم الضحايا هنا وهناك ، والاسباب واحدة !

ولكن ها هي شمس الثورة ترتفع على رحاب الشرق . ففي اوائل آذار ١٩١٧ نجح العمال والفلاحون الروس في خلع القيصر ولكن احزاب البورجوازية الصغيرة والمنشفيك، وقد رفعتهم الثورة الى مراكز الحكم ، ارادوا استمرار روسيا في الحرب، وانقاذ النظام الرأسمالي، وبعد ثمانية اشهر من الجهود المستمرة الضارية ، نجح لينين والبلاشفة في فضح سياسة المنشفيك وانصار « الحرب

الى النهاية » واطلاع الجماهير على حقيقتها الدامية ، هكذا جاءت ثورة اكتوبر الاشتراكية فدكّت دعائم حكم الرأسماليين وكبار الملاكين العقاريين .

واقام الفلاحون والعمال ، بقيادة لينين وستالين ، نظام حكمهم الخاص ، وهو نظام السوفيات . واضحت المصانع الكبرى ، والمناجم ، والمصارف ، والخطوط الحديدية ، ملكاً للامة ، والشعب ؛ واعيدت الارض الى الفلاحين ! والشعب الروسي ، وهو في غمرة ثورته التحررية ، اعلن السلام الى العالم.

دفعني تحمسي للثورة الروسية الى العمل النضالي . فكنت ابحث في نهم عن انباء ما يجري هناك ، فاطالع الصحف والمجلات ، والكتب ، ولكنني ما كنت اجد دائماً ما ارجوه . فالحكومة والبورجوازية واكثر الصحف كانت « تناضل » ما وسعها « النضال » ، بالكذب والافتراء والدس على النظام السوفياتي الجديد...

غير ان هذه الحملات الكاذبة لم تحدث في اوساط العمال اثرها المطلوب . فقد كان اقلهم ثقافة يعرف ان ذلك الذي يبنى في روسيا هو جمهورية العمال . والقضية التي كان يناضل العمال الروس في سبيلها ويسقطون قتلى في ميادين الثورة ، انما هي قضيتهم ، وقضية العمال في جميع بلدان العالم . ومن فوق خنادق الاعداء ، والمدن المشتعلة المكتسحة ، والمناطق التي حصدتها المدفعية وحولتها الى صحاري جدباء ، حيث لم يبق الا

الموتى والاشباح ، من فوق هذا كله تصاعد النداء الذي رددته الثورة الروسية ، نداء كارل ماركس : « يا عمال العـــالم ، اتحدوا ! »

كنت كلمـا غادرت السفينة ، ونزلت الى البر ، أتصـل بالمناضلين الاشتراكيين ، ووجدت في اميان فئة فوضوية واسعة النفوذ ، ولكنها لم تكن لتفقه شيئاً مما يجري في روسيا .

في آذار ١٩١٨ ، ابان الهجوم الالماني الكبير على السوم ، صدر امر عن القيادة الفرنسية العليا ، يدعو جميع الشبان لمغادرة المنطقة المهددة بالغزو . فتلقى جدي هذا الامر كما لو تلقى ضربة دامغة . لقد كنت امله الوحيد الاخير ، ورفيقه الامين ، بعد ان ذهبت الحرب باكثر ابنائه . وعند ذهابي بكى جدي ! ..

قصدت غرانفيلييه في مقاطعـة الواز سيراً على الاقدام . وهي قائمة على بعد ثلاثين كيلو متراً من اميان . وهناك كلفونا بحفر الخنـــادق أمد شهر كامل ، واطلقوا سراحنا بعد ذلك . وكان الالمان قد بلغوا ضواحي اميان . وكانت قنابلهم تسقط كل يوم ، حول الكاتدرائية المحمية قدر الامكان ، باكياس من الرمل تحيط بها ، ولا ازال اذكر نقمتي ازاء وحشية المهاجمين وبربريتهم ، ولا يحسبن احـد انني اقدس وثنيـــات الماضي ، او اتمسك باوهامه ، ولكنني كنت ولا ازال احب فن العمارة ، والابداع المتخذ من الحجارة خطوطاً وصوراً ، واحس باعجاب عظيم بمخرمـات الفن القوطي الرفيع ، وهي مظـاهر معجبة ،

خلفها عصر دائر . ثم أيقنت فيما بعد ، ان عصراً عظيما واحداً وحسب — هو العصر الاشتراكي — يستطيع ان يخلق ثقافة كبرى وينشيء روائع عظمى تنهض لتضاهي تلك الكاتدرائيات التي انشأها الايمان المضطرم في صدور العمال البنائين والمثالين .

بلغت الثامنة عشرة من عمري وقد مارست ثلاث حرف مختلفة : فكنت عامل منجم ، ثم خادماً في حقل ، فملاحاً في سفينة . ثم قدر لي ان اواصل خبرتي بالحياة فاعمل خبازاً ، من نوار الى تشرين الثاني سنة ١٩١٨ ، وكانت ظروف عملي تدعو الى الرثاء ، فقد كان المخبز ضيقاً يزخر بالبق والصراصير . وكانت مهمتي حمل اكياس الدقيق ، ومساعدة العمال الخبازين ونقل الحطب والخبز ، وتنظيف الفرن كل يوم .

* * *

واخيراً اعلنت الهدنة .

وعلمت ان اهلي انتقلوا ، عند تراجع الالمان ، الى لانكسان ، في بلجيكا ، فانطلقت في اثرهم وقد نفد صبري ، وحركني شوق مذيب الى معانقة اولئك الذين فصلتني عنهم الحرب .

والمسافة بين اميان وتورنيه تبلغ مئة وعشرين كيلو متراً . فسرت في صحبة بعض الرفاق ، سيراً على الاقدام ، مجتازين المناطق المكتسحة المدمرة . ومررنا بنواحي اتخذت اسماؤها ،

في البلاغات العسكرية ، ما يشبه هالات الاساطير ؛ رأيناها فلم تكن اكثر من خرائب وآثار يشبه بعضها بعضاً ؛ هكذا تلاشى تنوع الحياة في وحدة التخريب ورتابة الموت . لقد ابقت الحرب مشاهد لا تنسى : من ادواح حَوْر ضخمة ، مسجّاة على جوانب الطرق ، وربى حفرت القنابل صدورها ، وافواه براكين موحلة ، وبحيرات مياه سود ، تطفو على سطحها آلات حديدية يتأكلهـــا الصدأ ، وحفر وهوات وأتاويه وخنادق ، واودية واسعـة تصل الاسلاك الشائكة والعوسج اليابس بين حافاتها . انها لمناظر الرعب !

وفي القرى ، او ما كان من قبل قرى ، يتظنى مكانها بآثار هذا الغبار الاحمر من بقايا القرميد المسحوق، ترى بعض الحجارة في الارض قد سلم من القنـابل ، وظل يوميء ، بصعوبة ، الى وجهة الطريق...ولم يكن امامنا ما نهتدي به الا بعض اللوحات المغروسة هنا وهناك في غير ترتيب ولا نظـــام ، وعليها تقرأ بحروف ملتوية حائرة : بيلي غراناي ، ليافان... هنا كل قبضة من التراب غمست بالتراب والدموع . نحن نسير على الغبـــار الذي كان جيوشاً ، وعلى الاديم الذي كان اجساماً تفيض بالحياة والبهاء . وكانت تطالعنا اسماء تبرز فجأة بروز الاشباح العائدة : نوتردام دى لوريت، وسوشيه، وليبرون ديزاراب... واخيراً بلغنا لان ، وكانت اكواماً فظيعة من البيوت المهدمة المحصودة ، حيث تتمطى الحفر الملأى بالمياه القذرة وتتثاءب في

وجه السماء ...

وفي احدى الامسيات ، بلغنا نواييل غودو . ورأيت القرية التي قضيت فيها طفولتي وهي بين اشداق الخراب ! وها منزلنا لا يزال قائماً ولكن منزل عمي الى جواره سحقته قنبلة . ورأيت المعامل مهدمة . اما الحفرة ذات الرقم ٤ حيث عملت ، فلم تكن الا سرداباً من القرميد والحجارة والاخشاب الضخمة والدعائم الفولاذية والجماجم... وكان الالمان قد نسفوا المناجم قبل انسحابهم وفجروا الديناميت في الحفر واغرقوها بالمياه ...

قضينا الليل في كوخ حقير ، فئنا اليه من قسوة الريح والامطار ، وفي فجر اليوم التالي له ، استأنفنا المسير وقلوبنا منقبضة كئيبة...

الخرائب... الخرائب دائماً امامنا... ها هي اورشي ثم بلجيكا، ها هي تورنيه وآث واخيراً لانكسان . وهناك وجدت اهلي . وما عدت اشعر بتتاعب السير المضني الطويل في نواحي امحت طرقاتها... ووهبتني نشوتي في معانقة امي وابي قوى جديدة . ونسيت ، منذ ساعتي ، اعوام الفراق الاربعة ، ومشاعر القلق المميتة ، وسائر المصاعب والاخطار ، كنت كالخارج من كابوس ، فحياتي ستعود سيرتها الاولى...

وفي الثالث من كانون الثاني ١٩١٩ عدنا الى نوايل، وعكفنا على العمل ، بشجاعة ، وسط الخرائب والدمار .

واستخدمت في البدء لاعادة بناء الخط الحديدي بين لان ودواي . ثم عدت للعمل في الحفرة رقم ٤ في مناجم « دورج » .

وكنت أزداد شغفاً ، يوماً بعد يوم ، بالعمل النقابي ، والحركة العمالية ، والنضال السياسي . وكنت اشعر بان في هذه الحقول ايضاً ثمة حاجة ملحة لاعادة بناء كل شيء .

وفي كل سبت كنت ابيع صحيفة « المنبر » النقابية . وكم كانت سعادتي عظيمة يوم نجحت في بيع ٣٢٤ نسخة منها !

كان موقف فرنسا من الناحيتين السياسية والاقتصادية يخلق ، على نحو سريع ، جواً ثورياً في اوساط العمال . فارتفاع الاسعار وغلاء الحاجات ، وسقوط قيمة الفرنك ، وازمة وسائل النقل ، وغلاء الفحم والسكر ، وصعوبات التحول من الاقتصاد الحربي الى الانتاج في عهد السلم . كان كل هذا يخلق اضطراباً لم تنجح في تهدئته جميع التدابير الحكومية ، كقانون « الثماني ساعات » الذي فرضته الجماهير على حكومة كليمانصو ...

وتمشت موجة من الاضرابات في ارجاء البلاد . ولكن لم يكن ثمة حزب ثوري منظم قوي ، فلم يؤد هذا الوعي العمالي الى نتيجة عملية ، ألم يقل لينين انه « لا حركة ثورية بلا نظرية ثورية ؟ » .

اخذت الطبقة العاملة تبحث عن طريقها ، يكتنفها اضطراب

عميق ، وتعترضهـــا تقاليد ما قبل الحرب ، وتفت في عضدها الروح الفوضوية النقابية ، والروح الانتهازية المسالمة... ومن ٣٤٠٠٠ عضو في سنة ١٩١٨ ارتفع عدد اعضاء الحزب الاشتراكي الى ١٥٠٠٠٠ عضو سنة ١٩٢٠ . وبلغ اعضاء الاتحاد العام للعمل (السي جي تي) مليونين ونصف المليون . وقامت الطبقة العاملة تطالب بوضع حد للتدخل ضد السوفيات ، وتسريح الجيش على الفور ، واطـــلاق سراح المعتقلين السياسيين والعسكريين . وكانت الطبقة العاملة الفرنسية تفهم حق الفهم النضال المجيد الذي تخوضه الجماهير الروسية وتحاول ان تعينها ما استطاعت الى ذلك سبيلاً .

انخرطت في الحزب الشيوعي وفي النقابة، في آذار عام ١٩١٩، وانضممت الى الحزب مع رينيـه فرواسار ، وهو فلاح اعدمه الالمان بالرصاص فيما بعد ، بمقاطعة اليون عام ١٩٤٢ . وكنت اناضل ، في قلب اللجنة للانضمام الى الاممية الثالثة . اما في نقابة عمال المناجم فكنت اناضل لضم هذه النقابة الى (السي جي تي) ويا له من عهد من النشاط السياسي العنيف، والمنازعات الصاخبة! ولقد صوتت الفرقة الاشتراكية في نوايل ، بعد عدة اسابيع من اجتماع شعبي كبير خطب فيه فايان كوتوريه ، صوتت للانضمام الى الاممية الثالثة بـ ٦٦ صوتاً مقابل خمسة ، وكان ذلك نصراً حقيقياً في منطقة يسيطر فيهـا القادة الاشتراكيون الذين ما كان بوسعهم ان يمنعوا الانسحاب من الاممية الثانية ، لكنهم

يؤخرون الانضمام الى الاممية الثالثة(١) .

وفي مؤتمر ستراسبورج (شباط ١٩٢٠) صوت ٤٧٩ نائباً عن البادي كاليه ، و ٣٦٣ كانوا ضد الاممية الثانية و١١٧ معها. وفي نهاية الامر انشطرت مندوبية البادي كاليه الى شطرين : النصف (٢٣٢ صوتاً) أيدت اعادة انشاء الاممية على اسس ثورية (وكان يمثلها لوجيه) والنصف الآخر بقيادة بلوم ، ايد الاتجاه اليميني المنشفيكي...

ونجح بعض تجار السياسة في اخفاء طلبات انضمامنا الى الاممية الثالثة ، فلم يكن امامنا الا مواصلة النضال ، وتكاثرت الاضرابات والحوادث في البادي كاليه والشمال ، عام ١٩١٩ ، وعاد عمال المناجم وعمال النقابات الاخرى الى الصراع . وبدا عام ١٩٢٠ اشد هولاً واقوى عواصف .

وفي شهر آذار ١٩٢٠ ، وفي غمرة الاضراب ، وحين تعييني

---

(١) ادت الحرب الى افلاس الاممية الاشتراكية وانهارها ، وباستثناء الحزب البلشفي ، نرى جميع الاحزاب المنبثقة عن الاممية الثانية قد غرقت في غمار سياسة الحرب ، وقام كل منها يؤيد البورجوازية في بلده . ومنذ اول نوفمبر ١٩١٤ اعلن لينين قائلاً : « ماتت الاممية الثانية... عاشت الاممية الثالثة » وفي آذار ١٩١٩ تأسست الاممية الشيوعية الثالثة ، وتجمع حول البلاشفة سائر الاحزاب العمالية التي كانت ترغب في استعادة مبادىء ماركس الثورية ، وكان القادة «الاصلاحيون» يناهضون الاممية الثالثة المتحررة من الانتهازية ، ويدعون الى بناء اممية تحفظ في صدرها الاحزاب الاشتراكية وقادتها المفلسين الغارقين في السياسات الحربية المتعاونة مع البورجوازية .

مندوباً عن قسم نوايبل في اللجنة النقابية بدورج ، دعيت الى ثكنة الرماية رقم ٧٢ . وفي اثناء احدى العطلات اشتركت في مؤتمر عماني ، وانا لا ازال في بزة الجنود ، وخطبت اول مرة ، في الجماهير ، وناهضت يومئذ آراء نائب المنطقة الاشتراكي ، ودافعت عن اتجاهات الاممية الثالثة ، وكان عمال المناجم فرحين بالاصغاء الى احد ابناء منطقتهم يتحدث اليهم عن مشاغلهم ، وبؤسهم ، ويدلهم على طريق الخلاص التي شقها لينين : وكانوا يقولون وهم يتدافعون بالمرافق : «انظر... انه الصغير توريز... لقد كبر...»

وفي الثكنة ثابرت على المطالعة والعمل . وواصلت النضال ايضاً . وكنا نتناقش كل مساء في موضوع الثورة الروسية والاممية الثالثة او نرسل اسم مشترك جديد لصحيفة الاومانيتيه.

وفي كانون الاول عام ١٩٢٠ كان تأثرنا عظيما ونحن نتابع المناقشات في مؤتمر تور ، وكانت أحاديث كلارا زيتكان العارمة الحارة وخطب مارسيل كاشان ، تكهربنا.

واعطى اتحاد البادي كاليه هذه المرة اصواته للانضمام الى الاممية الثالثة بالاكثرية ، اي بـ ٢٦٧ مندوباً يتزعمهم كاسان وفروسار ، صوتوا للانضمام و ١٤٥ صوتوا الانضمام مع بعض التحفظ ، اما جماعة بلوم فقد اعلنوا حيادهم ودعوتهم الى « حركة جديدة » . وكان عددهم ٦٧ .

كان ذلك نصراً ساحقاً للاممية العمالية الثورية ، لقد عادت الطبقة العاملة الفرنسية تسير الى الامام . ونحن الشبان كنا نتنفس ملء صدورنا هذا الهواء الحر... ولكن امام الشيوعيين طريق طويلة.. وخبرة صعبة عليهم ان يكتسبوها ، ليعرفوا الرجال السياسيين المحيطين بهم ، حق المعرفة ، وليكتسبوا تجربة النضال والدربة فيه وليتعلموا كيف ينتصرون وفقاً للظروف الخاصة بفرنسا...

الفصل الثاني

عهد الموان

في اثناء خدمتي العسكرية ، كنت اعود احياناً الى القرية في اجازة وانزل الى اعماق المنجم للعمل ، وكان رئيس عمال المنجم يضعني الى جانب المكا ، زيادة في الحذر ، وهم رجال من « الصفر » الذين يخوضون دائماً الانتخابات ضد مرشحي النقابة ، لتعيين مندوبي عمال المناجم، والمندوبين لدى صندوق الاغاثة .

ولدى عودتي من الثكنة ، وانتهاء مدتي العسكرية ، رفض رئيس العمال اعادتي الى المنجم ، فتحتم علي ممارسة مهن عدة ، فكنت عامل بناء ، ثم دهاناً في المباني ، وهي مهنة مارسها اخي لويس، الذي اعدمه الالمان رمياً بالرصاص سنة ١٩٤٢ .

وكنت ابذل نشاطاً كبيراً في حركات الشبيبة الشيوعية ونقابة المناجم الاتحادية ، واتصل بغابرييل بيري الذي كان يفتتح في صحيفة الطليعة ، في تلك الايام ، حياته المجيدة بوصفه صحفياً شيوعياً ، وفي حزيران ١٩٢٢ قتل اربعة عمال اثناء

اضراب حدث في الهافر، واعلنت «السى جى تى» اضراباً شاملا مدته اربع وعشرون ساعة ، يوم ٢٨ حزيران ، ولم تبلغ عمال المناجم ، في نواحينا هذه الانباء ، الا متأخرة ، ورغم ذلك اتبعوا شعار الاضراب ، وتقيدوا باوامر اتحاد النقابات ، وكنت قد اصبحت عامل الدعاوة في منطقة كارفان ، فأخذت بعد فراغي من عمل النهار انتقل في المساء من اجتماع الى اجتماع على دراجة ، وفي سنه ١٩٢٣ اعلن عمال المناجم اضرابين اولهما في شباط والآخر في تشرين الثاني فأيدت الاول وعارضت الثاني :

اما اضراب ١٥ شباط فقد اعلن اثر احتلال الرور ، وكانت ارساليات الفحم الالماني قد توقفت مؤقتاً . وكان عمال السار مضربين فكانت تلك فرصة مؤاتية ، وبعد بضعة ايام من النضال انتزع العمال من اصحاب الاعمال ، زيادة في الاجور ، فأصدر مجلس اتحاد عمال المناجم الوطني اوامره باستئناف الاعمال ، وهكذا انتصر العمال .

وفي شهر تشرين الثاني ، كانت زيادة الاجور في بعض المناطق قد سبقت الاوامر باعلان الاضراب الثاني ، وفي هذه الظروف رفض عمال « السى جى تى» والعمال غير المنضمين الى نقابة ما، ان يستجيبوا لنا، وكنا قد نجحنا في شباط بحملهم على الاضراب . اما اليوم فقد لاقوا فشلا ذريعاً . كنت مناضلا فتياً ، فتعلمت من هذه التجربة المزدوجة درساً في الواقعية ،

وفي اثناء المناقشات التي جرت في مؤتمر اتحاد عمال المناجم ، الذي انعقد في مونتسولي‌مين في حزيران ١٩٢٤ صرحت قائلاً: « لا يخلق بانسان ان يعد رغباته حقائق ... فالثوري الحقيقي هو الذي يبدأ بملاحظة الوقائع في ضوء حقيقتها وحدها ، وانني ارى انه قد يتخذ في حال معينة قرار معين ، فاذا تغيرت الحال، يجب المبادرة الى اتخاذ قرار يختلف عن القرار السابق .. يجب الانسحاب اذا لم تبد شروط النصر متوفرة، والمبادرة الى المعركة فوراً اذا املنا على العكس ، بنصر مؤكد... وعلى كل حال ، فلا يمكن ان يرتبط المناضل بصيغة او بقرار ... ولا يمكن ان نسيء الى الحركة الثورية بامثال هذه المواقف » .

وكنت اذكر هذه الفكرة التي كثيراً ما اوضحها لينين :

« يجب ان لا نبقى خلف الطبقة العاملة . علينا ان نكون امامها ، ولكن خطوة وحسب » وظل جدي عضواً في الحزب الاشتراكي ولكنه كان يشجع نشاطي النقابي ، وكان يقدر الشيوعيين ويحترمهم ، فاذا هاجمهم احد في حضوره صرخ : « امنع اياً كان من التعرض للشيوعيين » .

وكان شعار المؤتمر الثالث للاممية الشيوعية المنعقد عام ١٩٢١ هو : « اتجهوا الى الجماهير ، والفوا الجبهة المتحدة » ولم يفهم المناضلون الشيوعيون في البادي كاليه ، حق الفهم ، ما تنطوي عليه الجبهة المتحدة من خطة، وكانوا يرون في الدعوة لها استسلاماً للزعماء « الاصلاحيين » وشبه خيانة ، فكنت اناضل في المؤتمر

الاتحادي بآفيون ، في سبيل الجبهة المتحدة .

وفي مؤتمر باريس ، المنعقد في تشرين الاول ١٩٢٢ صوتت منطقة البادي كاليه بـ ١٤٦ صوتاً ضد الجبهة المتحدة و ٤٠ كانوا مع الجبهة . وكنت في المؤتمر مندوباً عن الاقلية الداعية الى الوحدة .

وبعد اشهر قليلة ، اقتدى جميع المندوبين بنا وآمنوا بوجهة نظرنا ، ومنذ تلك الايام ، والبادي كاليه مخلصة لمباديء الاممية الشيوعية ولراية الوحدة البروليتارية .

وفي كانون الثاني ١٩٢٣ تم احتلال الرور ، فقام الحزب الشيوعي يناهض سياسة بوانكاريه ، وهي سياسة عنف قدر لها ان تغذي فيما بعد ، دعاوة هتلر الثأرية .

ونشر الشيوعيون الفرنسيون نداء في اوساط جيوش الاحتلال : « العمال الالمان هم اخوان لكم ، فاتحدوا ! » وسرعان ما ظهرت نتائج هذا النداء ، ففي دويسبورج ودورتموند كان الجنود الفرنسيون ينشدون النشيد الاممي الشيوعي ويتقدمون المظاهرات الثورية . وفي ايسن رفضوا اطلاق النار على العاطلين عن العمل الذين احتلوا سراي الحكومة.

ولكن اعمال القمع جاءت ضارية عنيفة : واعتقل قادة الحزب وقادة «السى جى تى» (كاشان ، ومونموسو ، وسيمار وغيرهم) وسجنوا بتهمة التآمر على سلامة الدولة . وفي سجن

السانتيه اضرب غابرييل بيري عن الطعام ؛ والتأم مجلس القضاء العسكري في ماينس ووزع ١٣٣ عاماً من السجن على ٣٧ جندياً من الشبان .

في تلك الايام العصيبة انسحب من صفوفنا فروسار ، سكرتير الحزب ، ولكننا تلقينا عضواً مجيداً وهو الكاتب العظيم «هنري بربوس» صاحب كتاب «النار» ومؤسس «الاتحاد الجمهوري للمحاربين القدماء» .

في تلك الساعات الزاخرة بالنضال والاضطهاد ، وفيما كانت العاصفة تنقض على الحزب الشيوعي ، دعيت الى ادارة اتحاد البادي كاليه في البدء بوصفي امين سر مساعداً ثم في اواسط ١٩٢٤ اميناً للسر وهكذا اصبحت حزبياً مثابراً وثورياً محترفاً .

وفي مؤتمر ليون (١٩٢٤) عينت عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي ، وفي اكتوبر ١٩٢٤ عينت اميناً للسر في منطقة الشمال ، وكانت تضم ثلاث نواحي : الشمال ، والبادي كاليه والسوم ، وكنت لا ازال عضواً في الاتحاد الوطني لعمال المناجم .

وفي الحادي والعشرين من كانون الثاني ١٩٢٤ مات لينين ، واعترانا الم هائل ، واحست البروليتاريا الاممية ومناضلوها بانهم اضحوا فجأة كاليتامى ، فوجه لينين غاب .

ولكن الثورة استمرت على الرغم من ذلك . فان طبقة

مؤلفة من الملايين ، تملك المستقبل في يدها ، تلقت تعاليم لينين. مات لينين ولكن اللينينية كانت لا تزال تحيا وتنتصر .

وانا ، شأن جميع المناضلين من جيلي ادين بالكثير للينين ، فتفكيره يجمع الى العمق ، بساطة تجعله في متناول الشعب ، وكثيراً ما اتيح لي ان اطلع الرفاق الشبان على كتابيه في «الثورة والدولة» « وامراض الطفولة في الشيوعية» فكانوا يؤخذون دائماً بروعة ما يقرأون فيهتفون : « ما اجمل هذا وما ابسطه !»

ان مؤلفات لينين غنية جداً ، فيجد فيها المناضل دائماً مواضيع جديدة للتفكير ، واضواء يلقيها على المشكلات السياسية ، وكيف نتغلب على العقبات القائمة في طريق الاشتراكية اذا لم ندرس كتب لينين ؟ ان اللينينية هي نظرية الثورة العالمية البروليتارية المنتصرة .

ولينين ، هو ، قبل كل شيء ، المناضل في سبيل السلم ، ففي غمرة الحرب الاستعمارية ، وفوق تفجر الاحقاد البهيمية ، والاهواء الحيوانية ، والمظالم الشعوبية ، ناضل لينين في سبيل السلام ، لا بشغاء سلمي ضعيف ، ولا بالدعوة الى عدم الصمود في وجه الشر ، ولا بالتصريح « بان العبودية خير من الموت » ولكن بدعوة الجماهير الكادحة الى العمل الثوري ، والى تسلم الحكم .

وعبقرية لينين كانت تحليلاً عبقرياً لظاهرات التطور

الاقتصـــادي في عصرنا – تمركز الانتاج الى اقصى حدود التمركز وتحول المزاحمة الى اتفاقات الحصر وسيطرة هـــذه الاتفاقات ، الى جانب رأس المـال المالي ، وتصدير رؤوس الاموال ، وهو يتخطى تصدير البضائع ، وتوزيع العالم عـلى التروستات الرأسمالية ، واعـادة توزيع العالم كله على بعض القوى العالمية الكبرى . لقد اكتشف لينين قانون التطور الرأسمـالي ، غير المتساوي ، في مرحلته الاخيرة ، اي مرحلته الاستعمارية .

ومن ذلك خلص من ناحية الى طبيعة الحروب المحتومة بين القوى الرأسمـالية ، لاعـــادة توزيع العالم على قاعدة تناسب القوى الجديدة، ومن ناحية ثانية، الى امكان انتصار الاشتراكية في بلد واحد .

ولينين هو الدعوة المستمرة الى الثورة ، وهو المفهوم الثوري الذي يمزق حجـــاب الطوبويات الخيالية البورجوازية الصغيرة ويحارب الانتهازية والنقابية الفوضوية، في خلال الظاهرات الزاخرة بأعلى درجات التعقيد والصعوبة ، كان تحليل كل موقف تحليلاً موضوعياً محسوساً يكشف عن « صلة الوصل » وعن حبل النجاة الذي تعتصم به الثورة للتقدم في طريق التطور الاجتماعي .

ولينين هو استراتيجية الطبقة العاملة الثورية وخطتها . وهو الاتحاد مع الجماهير الكادحة في مزارع المستعمرات وشعوبها ، وهو على نقيض من التروتسكية عدو الثورة التي تريد السيطرة على

الفلاحين بالارهاب والعنف فان اللينينية تلح على اهمية الفلاحين ، وضرورة كسبهم الى معسكر الثورة الاجتماعية .

ولينين هـــو الحزب ، الحزب الثوري المطرّق في غمرة المعـــارك الطبقية العظمى ، حزب الطليعـة ، المسلح بنظرية الطليعة ، وقائد الطبقة العاملة الى النصر ، هـذا الحزب المؤلف على قاعدة المراكزية الديمقراطية ، اقام دعائمه لينين وكان يريد دائماً ، وقبل كل شيء ، الحفاظ عـــلى وحدته ، وصيانتها من عبث العابثين ، واخيراً: فلينين ، في الظروف التاريخية للحرب العالمية الاولى والاعوام التي تلتها ، هو النضال في سبيل الحزب الثوري الاممي البروليتاري ، وفي سبيل الاممية الثالثة ، وتربية اعضاء الحزب وسائر العمال وفقـــاً لمبادىء الاممية البروليتارية وروحها وضد كل نظرة قومية او شعوبية ضيقة .

وهكذا لم تقتصر جهود لينين على الدفاع عن تعاليم ماركس وانجلز وحمايتها من « المرتدين » والمزورين من اتباع الاجتماعية الديمقراطية ، بل انه طوّر النظرية الماركسية ودفعها الى الامام: وفي هذا كتب ستالين يقول :

« اللينينية هي الماركسية في العهـد الاستعماري ، وعهـد الثورة العمالية البروليتارية ، وبكلمة اقرب الى الدقة : اللينينية هي نظرية الثورة البروليتارية وخطتها ، على نحو عام ، ونظرية ديكتاتورية الطبقة العاملة وخطتها ، بخاصة » .

وقدر لستالين نفسه ، وهو تلميذ لينين ومكمل نظريته ، ان يمنح النظرية الماركسية – اللينينية تطورات مهمة جديدة ، وان يغني ، بدوره ، تعاليم مؤسسي الاشتراكية العلمية ، وان يدفعها الى التقدم والتطور ، وقد عمم ستالين التجارب الضخمة للبناء الاشتراكي في الاتحاد السوفياتي ، فالقى اضواء نفاذة على مختلف مظاهر التطور الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والثقافي، في عهد ديكتاتورية البروليتاريا وظروفها ، لقد صاغ ستالين نظرية بناء الاشتراكية في بلد واحد .

* * *

في شباط ١٩٢٥ زرت الاتحاد السوفياتي اول مرة . هناك... حيث تحققت الثورة التي تنبأ بها ماركس ، دخلت خافق القلب، الى هذا العالم الجديد ، الذي اراده العمال وصاغوه كما شاؤوا .

وكنت انظر بعين الاعجاب الى هذا الكون الذي يُبنى ، وهذه المدن التي تطلع من الارض ، وهذه المصانع التي تدور عجلاتها لا لمصلحة فئة قليلة انانية مستثمرة منحلة، ولكن لمصلحة المجموع وفي خدمته ، وكانت وجوه العمال والعاملات تعلن في عزة وعزم : « لقد بنينا كل هذا بدون سادة ولا ارباب عمل . ونسيره بدونهم ايضاً » . وكانوا يجهدون بما يبذلون من تضحية وما يتحملون من حرمان ، لاعادة الحياة الى هذه الارض التي اكتسحتها الرأسمالية ونهبت خيراتها .

وفي رحلة ثانية الى الاتحاد السوفياتي ، زرت حوض المناجم في الدونيتز . فرأيت عمال المناجم الذين كانوا يعملون منذ ١٩٢٧ ، ست ساعات في اليوم ، ويستخدمون معدات حديثة متقنة ، ويتمتعون باجور تقاعدية ضخمة ، وبضمان اجتماعي حقيقي . والى جانب ارقى عامل في العالم ، ذلك المتحرر من نير رأس المال ، وسيد اقداره وموجد مصيره ، رأيت الفلاحين والمثقفين ، وقد حررتهم الثورة هم ايضاً ، يشغلون المراكز اللائقة ، في جمهورية عاملة ناشطة . وكانوا جميعاً متحررين من مشاغل الغد الممضة ، مطمئنين على مصائرهم ، كان في وسعهم العمل والانتاج . فمنازل الدعة تظل اوقاتهم العاصفة ، والمجموع هو الذي يعنى باولادهم . وشيخوختهم تنقضي سعيدة آمنة ، كأنها امسية نهار جميل...

وزرت مدارس ضخمة ، ومختبرات جميلة ، ومصانع مجهزة بالادوات الحديثة . وحضرت انتخابات مجلس السوفيات في موسكو ، وفي كل مساء كانت المواكب تتجه شطر ساحة « الدستور » لتقدم الى السوفيات لوائح المندوبين عن كل مصنع.

وكانت اعظم شخصيات الدولة العمالية تحف لتحية العمال وتهنئتهم .

كانت تبدو لنا ، في كل مكان ، مشاهد من الديموقراطية الحقيقية : الجماهير الشعبية في الحكم . وكنت اقارن هذه الديموقراطية الحقة بديموقراطيتنا الغربية الشكلية ، حيث

تعني الحرية ، في اغلب الاحيان ، بالنسبة الى الجماهير الكادحة ، حرية الموت جوعاً . وكنت اتصور الحياة الجميلة الرائعة التي توجدها الطبقة العاملة حين تستولي على مقاليد الحكم في فرنسا ، وحين لا تنفق جهودها وقواها لبناء ثروة فئة قليلة من الناس ، والمحافظة عليها .

واثناء زيارتي الاولى لموسكو ، اصبت سعادة لا توصف ، ولا تتاح لكثيرين ، وهي رؤية الرفيق ستالين وسماع حديثه . وكان تدخله في الحديث ، مرة بعد مرة ، على نحو يجمع البساطة الى العمق، قد احدث اثراً قوياً فيّ وفي جميع المناضلين العماليين الذين اسهموا في اعمال اللجنة التنفيذية للاممية .

وفي اليوم السابق لموعد رحيلنا ، استقبلنا الرفيق ستالين ، واثرت بشاشته القلبية العفوية فشعرنا بالارتياح منذ اللحظة الاولى . واستمرت احاديثنا اكثر من ساعتين ، وخشينا الاطالة ، ولكن الرفيق ستالين ، بعد ان اجاب باسهاب ووضوح عن اسئلتنا ، اخذ هو يوجه الاسئلة ، وابدى يومذاك فكرة ظلت راسخة في ذاكرتي ، قال : « ان النفوذ الحقيقي لحزب من الاحزاب ، يقاس بالاعمال التي يستطيع هذا الحزب تنظيمها وقيادتها » .

ولدن توديع ستالين اراد بيار سيمار ان يوجه الشكر باسمنا الى رفيقنا العظيم فأجاب ستالين ببساطة : « ولماذا الشكر ؟ نحن اخوان ، وانا انما اقوم بواجبي كأي شيوعي » .

وفيما كان الاتحاد السوفياتي ينهض من بين خرائبه الواسعة التي كومتها الحرب وسببها التدخل الاجنبي الاستعماري ، وفيما كان ينطلق منـــذ تشرين الاول ١٩٢٨ لتحقيق مشروعات الخمس سنوات ، في هذا العهد ، كيف كانت اوضاع فرنسا ؟ عُيّنت الوزارة الزرقاء ، وبعد اربع سنوات تخلت عن الحكم مخلفة اسوأ الآثار ، فخـــلال هذه السنوات الاربـــع ارتفع القرض العـام من ٢٥٠ الى ٢٨٠ مليار فرنك فلم يكن امام الكتلة الوطنية لتغطية هذه الفضائح المالية الا الاقتراض ، مرة اخرى ، وزيادة الضرائب والتمضمض بهذه الكلمة الجميلة « المانيا ستدفع » غير ان المفيدين من الحرب هم الذين اضحوا يفيدون من السلام . فكانوا يثرون من اعادة بناء المناطق المكتسحة المدمرة ، ومن نهب البضائع الاميركية ، ومن التواطؤ مع موظفي الدولة في سبيل عطاءات رابحة وعمليـات بيع مريبة ، محققين بالف وسيلة ارباحاً عجيبة .

ونشأ اتحاد النواب الراديكاليين والاشتراكيين ، المعروف باسم كارتل اليساريين لمجـابهة نواب الاكثرية المعروفين باسم « الكتلة الوطنية » . ووجه الحزب الشيوعي نداء الى الجماهير الكادحة تحت شعار : « هيا الى كتلة العمال والفلاحين » .

وكان البرنامج الشيوعي الذي تبنـاه مؤتمر ليون يدعو الى جبهة موحدة من جميع عمال المدينة والارياف في سبيل تأليف حكومة من العمال والفلاحين وكان يحذر الجماهير من الاعيب

« كارتل اليساريين » واوهامهم...

وتسلم « الكارتل » الحكم اثر انتخابات ١٩٢٤ فأحجم عن تطبيق برنامجه ، رغم اننا فضحنا نقص هذا البرنامج وعدم كفايته لحاجات الجماهير . وبذلت الفئة المستثمرة ، المهددة في مصالحها ضغطاً قوياً وشددت الاوساط المالية العليا من حدة هجومها ، فأدت الى تدهور الفرنك ، وقلبت وزارة بعد وزارة . وفي ٢٣ تموز اعادت بوانكاريه الى الحكم ، وهكذا انتصر « جدار المال » على غرفة « الكارتل » .

وتميز عام ١٩٢٥ بالحرب في مراكش ، وقام الحزب الشيوعي يفضح الاسباب الاستعمارية لهذا العدوان على الشعب العربي ، ودور الشركات الكبرى ، من صناعية ومالية ، في النزاع ، وبخاصة دور بنك باريس والبلاد الواطئة . أجل ايها الشهداء المراكشيون . لقد بذلتم دماءكم للدفاع عن بلادكم ضد بنك باريس فاغفروا للشعب الفرنسي هذه المؤامرة على كرامته وكرامتكم . وانتم ايها الجنود الفرنسيون ، الذين بذلتم دماءكم في ميادين المستعمرات ، انتم انما بذلتموها وتبذلونها في سبيل الرأسماليين لا في سبيل بلادكم .

وقد قال لينين :

عند بلوغ الرأسمالية اعلى مراحلها ، تتحول الى نظام شامل للاضطهاد والارغام الاستعماري وخنق اكثرية سكان الكرة

الارضية خنقاً مادياً ، من قبل بعض « البلدان الراقية »(١) .

وهكذا يضطر المستعمرون ، لزيادة ارباحهم ومضاعفتها بلا انقطـــاع ، الى بناء الخطوط الحديثـة ، والمرافيء ، وانشاء المؤسسات التجارية والصناعية ، وينتج عن هـــذا ، في البلد المستعمر ، ظهور بروليتاريا عمـــالية ، ويقظة الوعي القومي ، وتقدم التحرر الوطني .

ان حركة التحرر الوطني تضعف مواقع الاستعمار. والواقع ان هذه الحركة هي حليفة الطبقة البروليتارية في الدولة المستعمرة فالعمال وسكان المستعمرات يناضلون معاً ضد اعداء مشتركين هم الرأسماليون المستثمرون. ان المعونة التي بذلتها الطبقة العاملة الفرنسية ، للسكان المراكشيين تتفق ومباديء العدالة والاخوة التي يعتنقها العمال ، اي تتفق ومصالح العمال الخاصة ، في بلادنا، ونحن نضع دائماً نصب عيوننا كلمة ماركس :

« ان شعباً يضطهد سواه من الشعوب ، لا يعرف ان يكون شعباً حراً . »

كان يقود الحركة المناهضة لحرب مراكش « لجنة مركزية للعمل » عينت رئيساً لها ، فغادرت منطقة الشمال الى باريس .

وخلال صيف ١٩٢٥ ، عقدت مؤتمرات عمـــالية عديدة ، وبخاصة في باريس وليون وليل ومرسيليا وبوردو وستراسبورج

(١) « الاستعمار اعلى مراحل الرأسمالية » لينين .

وبيزييه . وكنت ادعو الجميع ، في هذه المؤتمرات ، باسم لجنة العمل ، الى الاتحاد ، وتبنى المؤتمرون مبدأ الاضراب العام ، وفي ١٢ اكتوبر ١٩٢٥ اعلن الاضراب العام احتجاجاً على الحرب في مراكش وسوريا ، وعلى ضرائب كابو ، وفي سبيل زيادة جميع الاجور ، واشترك في هذا الاضراب مليون عامل ، وكان ذلك اول اضراب سياسي جماهيري شامل منذ نهاية الحرب وقد رافقه بعض الحوادث العنيفة في منطقة باريس ، وفي بيتو قتل العامل سابانيه ، كنا نتبع ، بمناهضتنا الحرب في مراكش ، اعرق تقاليد الاشتراكية والراديكالية الفرنسية واقدمها ، ففي عام ١٨٨٥ حارب حزب العمال الفرنسي بقيادة جوريس ليفضح « خلية البعاثيب » المختبئة خلف الحرب المراكشية والحملة على الهند الصينية ، وكذلك كشف القناع عن الدهاليز السرية المالية التي تهيء النزاع المراكشي وتمده ولقد فضح حرب اللصوصية الاستعمارية فقال ، في خطاب له في السابع من ايلول ١٩٠٧ : « ثمة في هذه اللحظة صحفيون مأجورون مفترسون ، وصرافون متهورون ، ورأسماليون متكالبون ، يحلمون بمراكش ، وكأنها مغامرة جميلة مثمرة ، ولكن فيما ينطلق زبد الطبقات الرأسمالية العليا ، في مرح وحبور ، الى الشواطيء المراكشية ، نرى ، حتى في الطبقات البورجوازية الوسطى ، وحتى في الديمقراطية المزارعة التي لم تؤمن بعد بالاشتراكية الكاملة ، ملايين وملايين من الناس الذين يرفضون ان يراق ذهب فرنسا ودماؤها في هذه المغامرات المجدبة الجائرة ، انها مغامرات تغشيها رعشة

الجريمة ، ولكن هذه الرغبات في السلام ، لا تزال مبعثرة ، او مغمورة ، او حائرة ، » .

في عام ١٩٢٥ تناسى القادة الاشتراكيون ، وعلى رأسهم ليون بلوم وبول فور ، تعاليم غيد وجوريس ، فكانوا يبذلون جهودهم لدعم الحرب اللصوصية والعصابات والعدوان الاستعماري في مراكش وسوريا .. بينما كنا نحن الشيوعيين نناضل في سبيل السلام ، فانقضت تدابير الانتقام والقمع على مناضلينا ، فاعتقل منهم ٢٦٧ ونالوا اكثر من ١٢٠ عاماً من السجن ، ولوحقت انا ايضاً وحكم علي بالسجن ١٤ شهراً .

* * *

وفي مؤتمر الحزب الشيوعي بليل (١٩٢٦) نهض الحزب يحارب الانعزالية وضيق الافق ، وصرحت بوصفي عضواً في المكتب السياسي وامين لسر اللجنة المركزية ، بأن الشيوعيين هم الوطنيون الصالحون الحقيقيون وهم افضل الفرنسيين :

« الشيوعيون ، هؤلاء الاميون ، هم الذين اصبحوا اليوم افضل المدافعين عن التراث القومي ، والشيوعيون هم الذين يرفضون اليوم ان يتسلم اصحاب المصارف الانكلوأميركية نتاج عمل اجيال عدة ، غنيمة باردة ، ومن البدهي ان الشيوعيين اذ يقفون هذا الموقف ، وحين يقولون ، على نقيض القادة الاشتراكيين : « لا نريد ان ندفع لاصحاب المصارف الانكلو

اميركية » فذلك لا يعني انهم يريدون ادخال الفرح على قلوب اصحاب المصارف الوطنيين الفرنسيين ، ولكنهم يعبرون بذلك عن ارادتهم الواضحة وعزمهم على التحرر من ديكتاتورية اصحاب المصارف من اجانب ووطنيين على حد سواء . »

والى جانب بياني هذه الناحية من نشاط البروليتاريا ، المحافظة على الثروة الوطنية ، وجهت التحية الى الحزب الشيوعي ، وارث التقاليد الثورية التي يعتز بها شعب فرنسا :

اذا كان ثمة اليوم من يستطيع الانتساب ، بحق ، الى جميع تقاليد النضال العمالي في منطقتنا ، تقاليد عمال مناجم آنزين ، وشهداء فورمي ، وملاحي دانكرك وضحايا آرمانتيير ، فهؤلاء هم المناضلون في صفوف الحزب الشيوعي الفرنسي . »

وفي عام ١٩٢٧ اشتدت الاتجاهات التدخلية في مختلف البلدان واشتد خطر الحرب على الاتحاد السوفياتي ، وتعددت الحوادث على الحدود السوفياتية المنشورية وعلى ساحل المحيط الهادىء ، وكان كل يوم يطالعنا بانباء ومؤامرات جديدة واعتداءات على سكة حديد الصين الشرقية ، واعتقال موظفين سوفياتيين ، وتعديات على الحدود ، وحوادث صيد... الخ... كان العسكريون اليابانيون يريدون الحرب ، ولكنهم كانوا يترددون ازاء سياسة الاتحاد السوفياتي المصمم على السلام ، وبخاصة ازاء قواه العسكرية المتصاعدة .

وقطعت انكلترة علاقاتها التجارية بالاتحاد السوفياتي ، وفي فرنسة كانت البورجوازية الكبرى واركان الحرب يبذلون جهودهم لاثارة الحرب على روسيا ، وادلى الماريشال فوش يوماً بتصريح طنان الى صحيفة « ريفري » الانكليزية خلص فيه الى ضرورة تدخل فرنسة فاجابه الحزب الشيوعي بجواب عنيف ، وكان ذلك سبباً لاعتقال بعض الرفاق .

وزادت الصحافة الرجعية في باريس من حدة حملتهـــا على الاتحاد السوفياتي، واغتنمت فرصة خطاب القاه السفير السوفياتي فطلبت نقله وكان لها ما ارادت .

وكانت الحالة تشتد خطورة يوماً بعد يوم ، وانشأنا نناهض وحدنا الاحزاب الفرنسية مجتمعـــة ، ونناضل في سبيل السلام وفي سبيل الاتحاد السوفياتي .

رأينا كيف اختنق «كارتل اليساريين» تحت ضغط الرأسمالية؛ ثم عمد بوانكاريه الى انقاص الاجور ، وزيادة ساعات العمل ، وزيادة استثمار المستعمرات ، وارهاب العـــاطلين عن العمل « والسيطرة على الشارع بالحديد والنار » كما صرّح يوماً، فنصب هذا الحاكم نفسه بطلاً من ابطال «الثقة الرأسمالية» وطبق سياسة رأس المال المالي .

وناضل الحزب الشيوعي لتوحيد الطبقة العـاملة والطبقات الوسطى المستثمرة التي ادت بها الرأسماليـة الى الفقر ، وصهرها جميعاً في عمل واحد مشترك ضد البورجوازية العليا .

ولم يكن البعض ، في داخل الحزب ، ليفهموا الخطة القائلة بـ «طبقة ضد طبقة» التي اضحت ضرورية اثر التحولات في الحالة العامة ، وكان دوريو ، قائد هذا البعض ، قد ضلل الرأي العام، مدة ، بمواقف صاخبة لم يخف على احد ما فيهـــا من مغامرة وانتهازية . وقام متطرفو اليسار في منطقة باريس يناهضون الانتهازيين ، منتهجين سياسة مغامرات ، تبالغ في تقدير قوى الحزب الحقيقية ، وطاقته على استمالة الجماهير ، ولم تكن ثمة الا قرارات بيروقراطية آلية ، مستحيلة التنفيـــذ ، ومظاهرات ثورية تفرقها الشرطة بالعنف ، وبعض حالات تحتم على اعضـاء الحزب « اضراب القدوة » ، والطرد من الحزب لاتفه الاسباب ، واتهام الناس بالخيانة والرجعية، كانت هذه السياسة الحمقاء تحاول ان تجعل من الحزب فرقة منعزلة عن الجماهير .

وامعاناً في هذه السياسة الغافلة ، دان المسؤولون الاول عن هذه السياسة المغامرة المجنونة ، بالمباديء التروتسكية ، وبعد ان تورطوا في اخطاء لا تحصى ، وفي حركات فاشلة كادت تقضي على الحزب ، قاموا يتهمون الحزب والاممية ويلقون عليهما اعباء حماقاتهم . وكان علينا النضال في جبهتين : ضد الانتهازية التفاهمية وضد الانعزالية اليسارية ، وكان عليّ ان ابذل في ذلك اكبر الجهود .

* * *

في حزيران ١٩٢٧ وجهت الي التهمة التقليدية : « تحريض

رجال الجيش على العصيان ، ابتغاء نشر دعاوة فوضوية » ثم حكم عليّ بالسجن ستة اشهر وبغرامة مالية...

وبعد ذلك بمدة وجيزة، دعيت الى خدمة عسكرية اضافية، لمدة ٢٥ يوماً ، في الفرقة الهندسية الثالثة ، ووكلت اليّ مهمة في ترميم الجسور وبنائها .

وفي اليوم التالي لعودتي الى باريس ، ذهبت لاشترك في اجتماع بمركز الحزب ، شارع لافاييت ، وعند خروجي هاجمنا مفتشو الشرطة وجواسيسها فنشبت بيننا معركة قصيرة الامد ، ونجحت في الافلات، تاركاً في يد احد رجال الشرطة مزقة من ياقتي ، وشطراً من قميصي...

وبعد ايام قليلة تكررت الحادثة ، وكانت هذه المرة في مركز منطقة باريس ، شارع لافاييت . فقد حضر حشد من رجال الشرطة لاعتقالي . فمنعهم الرفاق من الدخول ، طالبين اليهم ابراز مذكرة التوقيف ، وانطلق رئيسهم ليستحضر المذكرة واغتنمت الفرصة فتنكرت وفررت...

وافتتحت عهداً من حياة متشردة قدر لها ان تستمر عامين. فكنت اعيش في منازل الرفاق ، وارقد فيها ، وابدل مكان سكني كلما سنحت الفرصة..

كنت بنجاتي من الاعتقال ، ونضالي الشرطة السياسية ، قد صدفت صدوفاً حاسماً عن بعض العادات « القانونية »

والانتهازية التفاهمية ، التي كانت شائعة حتى عند قادة الحزب الشيوعي ...

ولم يكن « الرفاق » يستسلمون الى الشرطة وحسب ، دون ادنى مقاومة، بل كان بعضهم يذهب مختاراً الى السجن او يتصل بالشرطة ويضرب لها موعداً لتسلمه...

لم يمنعني ما حملت عليه من التشرد ، من مواصلة نشاطي النضالي، وحضور اجتماعات اللجنة المركزية ، وجلسات المكتب السياسي ، واجتماعات الحزب السرية ، بل انني خطبت يوماً في الجماهير اثناء المعركة الانتخابية عام ١٩٢٨ ، في مهرجان سياسي ضخم ، نظمه الحزب بجوار بلدة فايف فيل .

وفي انتخابات عام ١٩٢٨ هذه ، حيث عمد الحزب الى خطة « طبقة ضد طبقة » نلنا ١٠٧٠٠٠٠ صوتاً اي اننا كسبنا ٢٠٠ ٠٠٠ صوتاً زيادة عما نلناه عام ١٩٢٤ ولكن عدد النواب الشيوعيين تدنى من ٢٦ الى ١٤ ! لان تقسيم مناطق الاقتراع أجري على نحو يتيح لجميع الاحزاب الاتحاد ضدنا وكان تقسيم الدوائر الانتخابية يشتت التجمعات العمالية ، وللدلالة على ذلك يكفي ان نذكر ان الحزب الاشتراكي قد نال ١٦٠٠ ٠٠٠ صوتاً فكان له مئة نائب !

وحاولت الحكومة تحطيم جهودنا الباسلة ، بعد ان فضحنا سياستها العدوانية الموجهة الى الاتحاد السوفياتي ، فضاعفت

الاعتقالات والاتهامات فكانت تزج المناضلين في السجون لصد الحركة العمالية !

وحدثت في صفوفنا خيانات وهزائم كما يحدث دائماً في جميع الاوقات الحرجة . كان العدو يسدد الينا ضرباته من الخارج ، ولكنه نجح ايضاً في التسلل الى داخل الحزب . وكان ثمة خونة مرتدون يختفون وراء سيليه وغارشري . وآخرون مثل دوريو ، كانوا يبالغون في التحفظ والاختباء ، ليتسنى لهم الامعان في الخيانة...

في تلك الايام تألفت جماعة باربيه سيلور التي اغتنمت فرصة تفرق المناضلين في السجون والمخابيء وتسلمت قيادة الحزب لتطبيق سياسة انعزالية تخريبية خائنة ، ولماذا لا اشير الى ان دوريو وباربيه وسيلور كشفوا الاقنعة عن وجوههم ، فيما بعد ، فاذا بهم عملاء عاديون لهتلر وخونة لبلادهم .

في حزيران ١٩٢٩ اجتمعت اللجنة المركزية في آشير « بالقصر » التابع للبلدية الشيوعية. فحاصر رجال الشرطة البناية، فلجأت الى مخبأ سري ، ولكن رجال الشرطة ، وقد بلغتهم انباء دقيقة ، اتجهوا مباشرة الى المخبأ .

وتجددت امثال هذه الخيانة ، وبعد مرور شهر على اعتقالي، وقبل حدوث مظاهرة الاحتجاج على اخطار الحرب يوم اول آب ١٩٢٩ ، اعتقل جميع اعضاء اللجنة المركزية ، دفعة واحدة في فيلنوف سان جورج..

وفي البدء سجنت في السانتيه ، مع المعتقلين السياسيين ولكن محكمة الجنايات في شار لفيل وجهت اليّ تهمة لا اذكرها ، فجاء رجال الشرطة يوم ١٤ تموز سنة ١٩٢٩ لنقلي الى نانسي حيث حكم علي بسجني ثمانية اشهر ، ونقلت في القطار والى جانبي مفتشان في الامن العام ، اقتاداني الى سجن شارل الثالث .

وما ان تمت مراسيم «التسلم والتسليم» حتى بدأت تطالعني المفاجآت اذ اقترب مني السجان وامرني ان اخلع ثيابي، فدهشت لهذا الطلب ونظرت اليه متسائلاً ولكنه اعاد قوله صارخاً : «اخلع ثيابك» فأجبته بهدوء : لن اخلع ثيابي . وانا امنعك من توجيه الحديث بهذه الصيغة المستهجنة(١) . فاحتقن وجهه غضباً وجعل يهدر ويزمجر وشرع في التهديد ولكن عبثاً :

ـ اخلعوا ثيابكم... او ابدأ باستعمال القوة !..

لم يعد يوجه الي الحديث بصيغة المفرد . وبعد قليل اخذ يشتم ويغمغم ولكنه انسحب متراجعاً...

كانت الحجرة التي سجنت فيها مظلمة ، رهيبة ، لا ينفذ اليها الهواء الا بصعوبة . اما رائحة العفونة فتملؤها صيفاً شتاء ، لقد قدر لي ان اقضي في هذه الزنزانة البائسة عاماً كاملاً . ثم

(١) في الاصل «بصيغة المفرد» وتدل بالفرنسية على رفع الكلفة بين المتخاطبين اما صيغة الجمع فدليل على الاحترام .

« المعرب »

طلبت يوماً مقابلة رئيس السجن ، فلم يأبه احد لطلبي ، ولكنني احدثت من الضجة ما حققته . وحين جاء ابلغته انني عزمت على معاملتي بوصفي معتقلاً سياسياً ، ولو كلفني ذلك الاضراب عن الطعام . فلا الضرب ولا وسائل التهديد تثنيني عن عزمي ، وسأحصل على احترام حقوقي بوصفي معتقلاً سياسياً . وحصلت بالفعل على هذه الحقوق ، فعشت مع سبعة معتقلين سياسيين آخرين كما كان يعيش رفاقنا في سجن « السانتيه » فكنا نقضي النهار معاً والليل كل في زنزانة ، ولكن كان امامنا نضال دائم لنجبر الحراس على احترام حقوقنا . فكان هؤلاء يدخلون الى حجراتنا دون قرع الباب ، فطلبت اليهم ان يستأذنوا قبل الدخول ففعلوا .

وكنا نجتمع الى زائرينا في قاعة النظارة وكان علينا التحدث من خلال شبكة حديدية بحضور الحارس ، وبعد الحاحنا خصص لنا حجرة للاجتماع . وكنت اجتاز يوماً ساحة السجن متجهاً الى زنزانتي فناداني رجل يرتدي الثياب المدنية :

— هوه... انت... هناك...

فلم التفت اليه فسأل الحارس عن اسمي ثم صاح :

— توريز... انا اناديك...

فلم اعره اي اهتمام بل دخلت الى غرفتي الخاصة وما ان اغلقت الباب حتى دخل الرجل صاخباً مزمجراً فقلت له بحزم وهدوء : اخرج حالاً يا سيدي...

— انت لا تعرف شخصية محدثك .. انا قاضي التحقيق ...

— وانا عامل شيوعي ومعتقل سياسي وليس لي اي علاقة بقاضي التحقيق... اخرج !

ولم يلح في النقاش اكثر من ذلك ، بل خرج..

وخلال مدة اعتقالنا ، نظمنا شؤون مدرسة لتثقيف رفاقنا الشبان المعتقلين . وكانت الاعمال المشتركة ، والاحاديث مع الرفاق لا تستغرق كل وقتي ، فكنت اغتنم الفرص لاستكمال ثقافتي السياسية .

في مجرى الحياة العادية تستغرق المهام العملية وقت المناضل العملي فتكاد لا تبقي له لحظة ، حتى ولو لم يضحّ في النوم الا ساعات قلائل ، واما في سكون الزنزانة فيستطيع ان يركز تفكيره في المسائل الكبرى ، وان يقرأ والقلم في يده ، وان يفكر ويكتب ؛ وفي سجن شارل الثالث عدت الى قراءة كتب ماركس وانكلز ولينين، فما اقوى الفكر وما اغناه عند اساطين الاشتراكية العلمية. فجميع ما تحدثنا عنه، من التمركز الرأسمالي ، وفقر الجماهير الكادحة ، وتطور المجتمع ، قد تحقق في دنيا الواقع . وما كنت استطيع رفع النظر عن صفحات « البيان الشيوعي » المشرقة اللاهبة ، وهذا البيان صدر عام ١٨٤٨ ولكنه لا يزال الى اليوم يحتفظ بجدة بريقه وحيوية معينه. وكنت احفظه عن ظهر القلب ، وذلك لانني درّسته في

« بيتون » عـــام ١٩٢٤ لعمال فتيان اصبحوا فيما بعد مناضلين مخلصين ، اما صفحات التحليل التي يوردهـا ماركس في « ١٨ برومير لويس بونابرت» فكانت تساعدني على تفهم الحقيقة الفرنسية تفهماً حسناً وثمة جملة لفتت نظري يشير فيها ماركس الى ضرورة اتحاد الطبقة العاملة الفرنسية مع الفلاحين والطبقـات الوسطى ، وكان كتاب ماركس « صراع الطبقات في فرنسا » وكتابه « الحرب الاهلية في فرنسا » يدعمان ايماني بالطبقة العـاملة الفرنسية . اليس العمال الفرنسيون هم احفاد اولئك الكومونار الذين « كانوا يصعدون لاحتلال سماء الامجـــاد ؟ » لقد حقق التاريخ رأي ماركس: « ان الطبقة العاملة في باريس وكومونها ستتمجدان الى الابد بوصفهما غمداً مجيداً للمجتمع الجـــديد . وسيظل قلب الطبقة العاملة الكبير منطوياً على شهدائها، امـــا مضطهدوها فسرعان ما أوثقهم التاريخ الى خشبة اعدام ابدية والى وتد تعذيب لا انفصام لهم عنه ، ولن تنجح صلوات كهنتهم جميعاً في تحريرهم منه . »

لقد استعـادت ثورة اكتوبر العمل الذي بدأه رواد سنة ١٨٧١ الابطال ، واكملته ، فبنت عـــلى رقعة مساحتها سدس الكرة الارضية كومونـاً ظافراً ، وانطبعت في ذاكرتي فكرة ماركسية اساسية : ان الحركة الديالكتية تحمل الثورة ونقيضها في صراع دائم ، والثورة تجعل نقيضها دائماً اشد ضراوة وعنفاً ، ونقيض الثورة يدفع هو الثورة الى الامام ويحملها على بناء

حزب ثوري حقاً ، وقدر لي فيما بعد ان أتحقق صحة هذه الفكرة حين بدأ الاعتداء الفاشي ٦ شباط ١٩٣٤ وجعلت الجماهير الكادحة تنتظم ابتغاء بذل مقاومة متصاعدة ، ثم تحولت هذه الجماهير الى الهجوم ؛

وزادني انكلز يقيناً بان ليس ثمة عمل مثمر لا يرتكز على الواقع . ففي ملاحظاته على برامج اللاجئين البلانكيين من حركة الكومون (١٨٧٤) كتب يقول : «انها لسذاجة طفولية ان يقيم الانسان لهفته الخاصة ونفاد صبره مقام الحجج النظرية» .

وكنت اجد في كتب لينين تفسيراً مدهشاً للظاهرات المعاصرة ، تزداد قيمته لانه مستمد من بلادنا :

« ان سيطرة اتفاقات الحصر الرأسمالية تصبح ، على نحو محتوم ، في ظل الانتاج التجاري والملكية الخاصة ، سيطرة محصورة بايدي فئة قليلة من اصحاب رؤوس الاموال المالية ، وسيطرة نفر محدود من اصحاب رؤوس الاموال الضخمة ، سيطرة فظيعة بلغ من وضوحها وكونها واقعاً بيّناً جلياً في جميع البلدان الرأسمالية : في اميركة وفرنسة والمانية ، انها كانت مادة لالوف الكتب التي تصفها وتنتقدها ، من وجهة النظر البورجوازية الصغيرة طبعاً(١) .

---

(١) لينين « الاستعمار اعلى مراحل الرأسمالية » .

واي خطة تتخذ الطبقة العاملة لتنتصر على خصومها ؟ يجيب لينين : الاتحاد ! : « ان اتحاد البروليتاريه هو اعظم اسلحتها في معركتها في سبيل الثورة الاشتراكية . »

ومنذ ١٩٠٢ قال لينين في كتابه « ما العمل ؟ » : « ان الذين تعوزهم الثقة بانفسهم هم وحدهم الذين يخشون الاتحاد المؤقت ولو كان ذلك مع عناصر غير موثوق بها ، ولكن الشرط الضروري لاتحاد كهذا هو قدرة الشيوعيين على اقناع الطبقة العاملة بتعارض مصالحها ومصالح الطبقة البورجوازية . »

ومن مؤلفات ستالين كنت ادرس بشغف كتابه الجليل الفخم « مسائل اللينينية » . ألم تكن المشكلة الكبرى التي تعترضنا هي الوصول ، وقد اضاءت الطريق لنا تعاليم لينين وستالين ، الى « تنظيم حزب جديد ، حزب مقاتل مناضل ، حزب ثوري ، له من الشجاعة ما يتيح له قيادة العمال الكادحين الى النضال في سبيل الحكم ، وله من الخبرة ما يحفظ عليه وعيه في ظروف موقف ثوري معقد ، وله من المرونة ما يجعله يتخطى العقبات المختلفة الانواع ، على الطريق المؤدية الى الهدف(١) ». وهكذا كنت احمل مطالعاتي لاقارنها بالموقف في فرنسا ، واجد عوامل تطبيقها وامكاناتها في بلادنا ، فكنت افيد من ذلك درساً مزدوجاً ويقيناً بحاجة مزدوجة ايضاً : اتحاد البروليتاريا والتحالف مع الفلاحين والطبقات المتوسطة لتحقيق

(١) يوسف ستالين . اصول اللينينية طبع فرنسا ١٩٤٧ .

هذه الغاية على احسن وجه : حزب شيوعي صحيح .

وكنت ارغب في قراءة كتب ماركس وانكلز في لغتهما الاصلية ، فعزمت على دراسة الالمانية وكنت اعرف بعض اولياتهـــا فانصرفت الى الدراسة بهمة ونشاط ، وبعد شهور استطعت مطالعة « الانتي — دهرنج » لماركس دون صعوبات تذكر . وقد كنت لا ازال احس بالتقدير والاجلال للشعب الالماني الذي اعطى الانسانية ألبير دورر ، وغوتنبرغ ، وليسنج وغوته وهيجل وبيتهوفن وماركس وانكلز ... فمظالم العهد الهتلري، وصواعق النازيه الهتلرية التي اكتسحت اوروبا ودمرتها، وجعلتها اثراً بعد عين لم تحملني قط عـــلى اخذ الشعب الالماني بحكم واحد شامل ، فانه يخلق بنا ان لا نخلط بين هذا الشعب وبين جلاديه .

كنت افضل من الشعراء الالمـــان غوته وهايني . الم يبلغ من تجرد غوته انه حيا انتصار الفرنسيين في « فالمي » ؟ ان مؤلفات غوته تزخر بالتعـاليم الثورية : « مربدة يا صاحبي هي النظريات كلها ، وخضراء شجرة الحياة الجميلة » .

هذان البيتان من رواية فوست حيث يبين غوته ان الحياة تتخطى دائماً كل نظرية فكرية ، كنت اذكر بهما قول لينين :

« ليست الماركسية مذهباً محدوداً ، بل انها دليل يقود الى العمل » .

وكنت احب ايضاً كلمة غوته وهو يؤكد انه « في البدء ... كان العمل » .

اما هنري هايني فكان شاعراً ثورياً حقيقياً ، وصديقاً لماركس ، وقد جأر بكرهه للمستثمرين في اغنيته عن « نساجي سيليزيا» ، وكنت أتذوق قصيدته الهجائية « من اقاصيص الشتاء .. »

لم يكن هايني الا روحاً وناراً . وها هو يحيي ، في باريس التي لجأ اليها من الرجعية البروسية ، العمال الفرنسيين الذين كان يرى فيهم « مردة وعمالقة يصوغون العصور الجديدة ويطرّقونها .. »

واخترقت كتب رومان رولان قضبان سجني فتمتعت زمناً طويلاً بصحبة «جان كريستوف» واسعدت عزلتي مغامرات « تيل او نبيجيل » حين استعدت جو الفلاندر ، مقاطعتي العزيزة ، وشغفها بالحرية ، وكرهها للطغاة جميعاً ، ومرحها الواثق ، وسخريتها وتفاؤلها ...

وقرأت بعض اقاصيص اناتول فرانس ، وهو آخر ممثل للفكرة الانسانية البورجوازية الذي ولى وجهه شطر الثورة الروسية في اواخر ايامه . لقد تميز فرانس ، في ديموقراطيتنا ، اولئك الذين يقبضون حقاً على اعنة الحكم ، فكتب في قصته جزيرة البنجوين : « بعد ان تحررت فرنسة من سلطة الملوك والاباطرة، وبعد ان جهرت معلنة حريتها ثلاثاً، عادت فخضعت

للشركات المالية التي تتحكم بثراوت البلاد ، وتوجه الرأي العام بوساطة صحافة مأجورة او مشتراة .

وكتب اناتول فرانس ايضاً : « يظن الجنود انهم يموتون في سبيل الوطن ... ثم يتبينون انهم يموتون في سبيل اصحاب المصانع .. »

واوشكت مدة اعتقالي ان تنتهي ، ولكن كان عليّ ان ادفع غرامة قبل خروجي من السجن ، وكانت عصبة باربييه سيلور قد عزمت على ابقاء جميع من يمكن ان يناوئوها ، في السجن، ليتاح لها تطبيق سياستها التخريبية. وهكذا قررت ان لا تدفع غرامتي ، وايقنت ان قادة العصبة على خطأ ، فعصيت قرارهم ، وقدمت كفالة ، فاخلي سبيلي ، واقرني الحزب والاممية فيما بعد على هذا العمل .

ها قد اصبحت حراً ، مليئاً بالعزم والنشاط ، وقد شحذت ذهني مطالعات كثيرة نافعة ، وقد فكرت طويلاً في المسائل التي تواجه البروليتاريا الفرنسية والمهمات التي كان عليّ اتمامها ، وعدت الى موقعي من المعركة ، واستأنفت النضال ، وبعد ذلك بقليل عهدت الي اللجنة المركزية بمهام السكريتورية العامة للحزب .

ماذا حدث في الخارج ، مدة سجني ؟ لقد أضعف الحزب ، واغتنمت العصبة السيلورية الفرصة ، فتسلمت جميع الوظائف والمهام ، وابتعدت بالحزب عن طريق اللينينية الصحيحة ، وكان

ذلك عن تصميم وقصد، وبدأت قوى الحزب تتدنى وعدد اعضائه يقل : فالاوساط الحزبية العليا تتخذ قرارات تحكمية، وتفرض انضباطاً وطاعة سلبيتين على اعضاء القاعدة ، خانقة كل مناقشة حرة ، متذرعـــة بالشك في كل انسان ، متخذة من الصمت المريب وسيلة للتوجيه ، ثم كممت الافواه جميعاً دون اي انتقاد مفيد مخصب ، فساد الحزب جو كأجواء الثكنات العسكرية ، هكذا فهمت « العصبة » القائدة المراكزية الديمقراطية التي دعا اليها لينين ، هكذا اصبح الحزب صورة ممسوخة للحزب . لقد اصبح حزباً ضعيفاً عاجزاً منطوياً على نفسه، بدلاً من ان يكون الطليعة الواعية النشيطة ، للطبقة العاملة .

كانت « العصبة » تعلن تجاهلها التام لجميع الحقائق اليومية ، ناسية هذه الحقيقة الاساسية وهي : « ان السياسة فن الممكنات من الامور » فكانت العصبة تفضل الحملة الخطابية الفارغة على التحليل الموضوعي الملموس ، مؤدية بذلك الى فشل الحركة العمالية ومحلها وعجزهـا ، وكانت تهمل مطالب الجمهور الصغيرة وتركلها بالاقدام قائلة «لقد انتهى عهد النضال في سبيل البفتاك» وكانت تهمل النشاط النقابي وتشتم العمال الاشتراكيين .

وقد شهد الناس ، اثناء وجودي في السجن مناظر مؤلمة ، ففي صـــالة كابي ، وشابيني ، نشب عراك بين العـــمال : الاشتراكيون ضد الشيوعيين ! كان ذلك عهد دوريو الدافع الى المعارك بين الاخوان !

كان علينا ان نبني كل شيء بناء جديداً .

وفي البدء ، كان علينا تأييد مطالب جميع العمال ، بسيطة كانت ام مهمة ، وتوضيح اهميتها للناس ، وطلب تدخل الحزب ، لتأييد العمال في نضالهم .

اهملت العصبة امر «الضمان الاجتماعي» ولكن اللجنة المركزية عادت فتبنت اقتراحي للنضال في سبيل ضمان اجتماعي حقيقي ، يدفع اصحاب العمل اكلافه .

كان علينا ان نهتم بجميع ما يهتم له العمال ، فلا نهمل مطلباً او حركة ، مهما دقت . هذه هي الخطة التي تبنيناها ، فالشيوعيون يجب ان يكونوا ، كما اراد ماركس ولينين اعظم اجزاء الطبقة العاملة وعياً وصفاء .

وفرضنا على افضل مناضلينا الانقطاع للعمل النقابي ، وكان علينا كذلك ان نخوض معركة عنيدة في سبيل انقاذ مبادىء المراكزية الديمقراطية مكافحين خنق الافكار واجدابها : « لا أوثان في الحزب الشيوعي. فلتتفتح الافواه »(١) .

واخيراً كشف النقاب عن وجوه العصبة فابعدت ، واضحت الطريق الآن حرة مفتوحة للنهضة .

كان اتحاد البروليتاريا اعظم فكرة تشغل الحزب الشيوعي

---

(١) عنوان سلسلة من المقالات لموريس توريز في صحيفة الانسانية اكتوبر ١٩٣١ .

في تلك الايام ، فالشيوعيون لم يرضوا قط عن انقسام الطبقة العاملة الذي نشأ عن اقلية رفضت في مؤتمر « تور » الانحناء امام رغبة الاكثرية ، ورغم ذلك لبثنا نناضل دون كلال للقضاء على التفرقة وحشد جميع العمال في جبهة واحدة للنضال .

وفي البدء فشلت جهودنا ، فلم نيأس ولم نتراجع . وقد دللت الاحداث ، فيما بعد ، على صحة ايماننا ، وحقيقة ما نسعى اليه .

وظل الحزب الاشتراكي ، طوال سنوات عدة ، يصم آذانه عن ندائنا ، فلم يكن يجيبنا الا بالصمت والسخرية .

وفي السادس والعشرين من حزيران ١٩٣٢ اصدر هنري بربوس ورومان رولان نداء مؤثراً لاقامة مؤتمر عالمي عظيم، لمكافحة الحرب ووجه الكاتبان نداءهما الى جميع «الرجال ذوي الارادة الحسنة » والى جميع المنظمات العمالية ، والسياسية والنقابية والثقافية ، فقام زعماء الحزب الاشتراكي يناهضون المؤتمر ، متهمين الداعين اليه بخدمة دولة اجنبية ، معلنين انهم يطردون العمال الاشتراكيين الذين يسهمون في مؤتمر أمستردام او في نشاط احدى لجانه العدة .

اما نحن فكنا ، على العكس ، نبادر لاغتنام جميع الفرص التي تؤدي الى التعجيل بالاتحاد .

وفي خطاب ألقيته بصالة بوليبه اليوم الثاني من كانون الاول

١٩٣٢ صرحت رسمياً باسم حزبنا :

« ان الطبقة العاملة تريد الاتحاد ، والطبقةالعاملة تطلب هذا الاتحاد بأعمق ما فيها من قوة وعزم ، والشيوعيون يناضلون في سبيل هذا الاتحاد بجميع ما يملكون من قوة ، وهم يمدون يد الاخوة لجميع العمال الكادحين ، لنستطيع جميعاً التغلب على العقبات في طريقنا نحو وحدة الطبقة العاملة وانتصارها .

ونحن انما نغتنم كل فرصة مناسبة ، من مظاهرة او اضراب او اي احتجاج كان، لنواصل مهمتنا في توحيد العمال ، وجمع شملهم ، للنضال المشترك بين العمال جميعاً مهما كانت ميولهم ومنظماتهم .

نحن نناضل في سبيل اعادة تنظيم « سى جى تى » موحد .

وطبقة عاملة موحدة ضد البورجوازية .

ونقابة موحدة .

وحزب واحد للطبقة العاملة .

* * *

ما زلت اذكر زيارتي في تلك الايام هنري بربوس . وكان يسكن في فصل الصيف ، قريباً من سنليس ، دارة « سيلفيا » وقد سماها باسم بطلة جيرار دى نرفال الشاعر الذي ابدع في وصف تلك الناحية من « الايل ده فرانس » وخلف لنا عنها صورة لا تنسى..

كنت اتحدث مع بروس عن الوسائل التي تساعد على تحقيق وحدة العمال لنضال مثمر ضد الفاشية ، بعد ان اخذ شبحها يرتفع في آفاق المانيا منذراً العالم بكارثة جديدة ، وهو لم يكد ينهض من الجراح الدامية التي رمته بها الحرب الاولى .

وضاعفت اتصالاتي بالرفاق الالمان، باذلاً جهدي لمعاونتهم في نضالهم الصعب. وفي ٣١ تشرين الاول ١٩٣٢ زار تايلمان باريس فاستقبلته الطبقة العاملة الباريسية بما وسعها من الترحيب والحماسة؛ وفي صالة بيليبه القى تايلمان خطاباً ، وعقبته انا بخطاب آخر . وفي ١٧ كانون الثاني ١٩٣٣ ألقيت كلمة في تأبين كارل ليبنخايت وروزا لوكسمبورج في مقبرة « فريدرنكفيلد » بمناسبة مرور ١٤ عاماً على اغتيالهما . وبعد ايام من مظاهرتنا استولى هتلر على الحكم ، وكان استيلاؤه عليه مصحوباً بجرائم عدة ؛ ولن انسى ما حييت جو برلين عام ١٩٣٣ ، فقد حملت عن اقامتي القصيرة في المانيا ما يشبه الشعور بالمآسي القادمة ، والكوارث الوشيكة ، من حريق الرايخستاغ الى معسكرات الموت والافناء ، ابان الحرب العالمية الثانية .

الفصل الثالث

النضال في سبيل الوحدة

كانت الازمة التي انقضت على العالم الرأسمالي ابتداء من ١٩٢٩ تفوق كثيراً بقوتها ونتائجها جميع الازمات الدورية السابقة . فقد تدنى الانتاج العالمي — باستثناء انتاج الاتحاد السوفياتي — بين عامي ١٩٢٩ و ١٩٣٢ بنسبة ٤٠ بالمئة ، والتجارة العالمية تدنت بنسبة ٦٠ بالمئة . وكان بعض المنتجين يتلفون الحنطة والضأن ويقتلعون فسائل القطن وجذوع الكرمة ، ويلقون بالبن الى البحر ، بينما البؤس يتزايد ، والمجاعة تتفشى في الهند والصين ، والاحصاءات الرسمية تعترف بوجود ثلاثين مليوناً من العاطلين عن العمل .

وكانت الحواجز الجمركية ترتفع من كل ناحية وصوب . ودورة السلع والبضائع تتباطأ وتخف ثم تتوقف ، والبلاد الاشد قوة تتنازع فيما بينها اسواق البلاد الضعيفة ، واحتمالات نشوب الحرب العالمية تشتد وتتضاعف .

وألمت الازمة بالمنهزمين في حرب ١٩١٤ – ١٩١٨ بخاصة ، فتدنى الانتـــاج الصناعي في المانية حتى بلغ ارقاماً مخوفة ، وكشرت الازمة الزراعية عن نواجذها ؛ في هذه البيئة رأينا نمو الهتلرية وترعرعها .

وفي الانتخـــابات الالمانية عام ١٩٣٠ ظل عدد الاصوات العمالية على ما كان عليه تقريبـــاً ، وتحول بعض اصوات الاشتراكيين لصالح الشيوعيين ، وتدهورت احزاب الوسط البورجوازية ومنيت بهزيمة نكراء . ولكن اتباع هتلر نالوا ٦ ملايين صوت .

لقد صدفت الجماهير البورجوازية الصغيرة ، بتأثير الازمة ، عن الاحزاب البورجوازية التقليدية ولم تتجه شطر الطبقة العاملة المشتتة ، بل انها اتجهت الى الفاشية مخدوعة بتهاويلها وتهويش زعمائها .

وكان الحزب الشيوعي الالماني يواجه الخطر ، ويجهد عبثاً لخلق جبهة موحدة مع الحزب الاشتراكي .

وكانت الفئات التي تحاول الصمود في وجه الديكتاتورية الهتلرية الصاعدة تؤكد كلها – ما عدا الشيوعيين – ان القومية الاشتراكية سيصيبها التفسخ والانحلال عما قريب . وفي انتخابات تشرين الثاني ١٩٣٣ خسر النازيون مليونين من الاصوات . فقام الاشتراكيون الديموقراطيون ينادون « بتلاشي الهتلرية » نهائياً ، وفي صحيفة «الشعبي» كتب ليون بلوم :

« لقد سدت ابواب الحكم ، بعد الآن ، في وجه النازيين . ولن تقوم لهم قائمة، لقد ظفرت الاشتراكية الديموقراطية بهتلر ».

وبعد مضي شهرين على هذه « النبوءة » العظيمة ، اي في ٣٠ كانون الثاني ١٩٣٣ دعا هندنبورغ هتلر الى تسلم الاحكام .

من هذه الوقائع يسعنا ان نستخلص ثلاث فوائد :

١ — لقد ضمنت جمهورية ويمار انقاذ الرأسمالية وخنقت ثورة ١٩١٨ ودمرت باسم « الديموقراطية » ، طليعة الطبقة العـــاملة المناضلة ، وهي دعامة الديموقراطية الصحيحة .

٢ — أيدت الاشتراكية الديموقراطية والنقابات الاصلاحية سياسة « التضحيات » والتعدي على الحريات ، تلك السياسة التي فرضتهـا الحكومات البورجوازية ، والاحزاب الاشتراكية الديموقراطية هي التي شقت الطريق للفـاشية ، بحجة اختيارهـا الطريق « الاقل سوءاً » .

٣ — ان الاشتراكية الديموقراطية وزعماء النقابات برفضهم الجبهـة الموحدة للطبقة العـاملة قد عزلوا البروليتاريا وجردوها من سلاحها .

وانها لدروس قاسية، كان علينا ان لا نهملها، نحن المناضلين في صفوف الطبقة العاملة في فرنسة ! ألم نكن معرضين ، في مستقبلنا القريب، لمثـل هذا الموقف ؟ ألم ينهض « مفكرون » فرنسيون وساسة قوميون ، ينادون بتعميق الفردية الفرنسية ،

وتفوق شعبنا الحر المتكبر المختال ، على الجماهير الالمانية المجندة المعودة على الطاعة العسكرية العمياء والانضباط السلبي الاحمق ؟ أجل . كان من المنتظر أن تعود ايام الامبراطورية الثانية ، وحركة مبدأ القوميات ، و « النظام المعنوي » و « البولانجية » الخ... الخ... فاذا لم تفضح الطبقة العـــاملة ألاعيب اعدائها ومؤامراتهم ، واذا افسحت المجال في فرنسا للتحديات والجرائم التي نهض رفيقنا ديمتروف يكشف عنها القناع في محكمة لينبرغ (١٩٣٣) فان بلادنا ، قد تتعرض ، هي ايضاً ، لمأساة دامية ، وديكتاتورية فاشية ، تذبح العمال ، وتعطل الحريات وتسلم فرنسا لهتلر وموسوليني .

وبدأ الاقتصاد الفرنسي يعـاني الازمة ، بعد ان أفاد مدة طويـــلة من ظروف مؤاتية : وجود اسواق داخلية واسعة ، ومعدل وسط لثبات الفرنك ، يتيح التصدير على نحو واسع . ولكن هذه الجزيرة الصغيرة من الرخاء سرعان ما ابتلعتهـا امواج الازمة المتصاعدة .

وبين سنتي ١٩٢٩ و ١٩٣٥ تدنى الانتاج الفرنسي ٣٣ بالمئة، واتسعت البطالة ، وتدنى الدخل القومي تدنياً عاماً بمعدل ٣٠ بالمئة ، وزادت الازمة في ظاهرات التمركز الرأسمالي، وفرض كارتل الصناعات المتحدة اسعاره الحصرية ، جانياً ارباحاً فاحشة .

وعلى العكس كانت الطبقات المتوسطة تفتقر شيئاً فشيئاً ، وبين ١٩٣٠ و ١٩٣٢ نقص عدد صغار التجار مئة الف تاجر .

وحملت الازمة البورجوازيين الصغـــار الى نمط من الحياة الاقتصادية الخطرة التي يعوزها الضمان ، ويبدو مستقبلها قاتماً .

وكانت هذه الطبقات تفقد شيئاً فشيئاً اوهامها في حريتها الاجتماعية والسياسية . امـــا البروليتاريه ، وقد مستها الازمة بأعظم الاذى . فكانت تناضل في سبيل شروط معيشتها ، انها حال صورها ماركس ، فأحسن تصويرها :

« كلما تدنى عدد سلاطين رأس المال ، الذين يتغردون بجميع فوائد هذه المرحلة من التطور الاجتماعي ، ويحصرونها بايديهم ، ازداد البؤس والاضطهـــاد والرق ، والانحلال ، والاستثمار ، ولكن تزداد ايضاً مقاومة الطبقة العاملة ، المتصاعدة بلا انقطاع ، المتعاظمة اكثر فأكثر ، الموحدة ، المنظمة بسبب من آلية الانتاج الرأسمالي نفسه(١) »

وكان الاغنياء يريدون ان يحلوا الازمة على حساب العمال . فطالبوا بسياسة تحقق تخفيض الاجور ، وتفرض الحماية الجمركية ، ضد البضاعة الاجنبية ، وتفرض حصراً داخلياً حقيقياً ، ونظام كفاية اوتارسية اقتصادية في « امبراطورية فرنسية مؤلفة من ١٠٠ مليون من السكان ، » وكان الرأسماليون يطمحون الى صيغة نظام سياسي يتيح لهم بلوغ هذه الاهداف ؛ وهذه الصيغة هي الفاشية .

---

(١) كارل ماركس - رأس المال الكتاب الاول الجزء الثالث الفصل الثاني والثلاثون .

وكان اصحاب الامتيازات يجهدون ، شأنهم في المانيا وايطاليا ، لكسب الانصار ، بين العناصر المنحلة في البورجوازية الصغيرة والبروليتاريا السفلى ، وكانت الحركة الرجعية قد نظمت صفوفها منذ زمن طويل : فالفاشية تريد استغلال قضية ستافسكي ، وهي فضيحة مالية اشترك فيها بعض رجال الندوة النيابية ، وفجأة كشفت الفاشية عن وجهها الصحيح ، مستسلمة لديماغوجيّة محمومة . وفي ٦ شباط ١٩٣٤ هاجم المشاغبون الفاشيون قصر المجلس الوطني ، وكان بعض رجال السراي واساطين السياسة يتقدمون المهاجمين وهم يهتفون « فليسقط اللصوص ! » واثر ظهور العصابات المسلحة — الصلبان النارية ، والشبان الملكيين ، وفرق الكتائب القومية ، والفرانسيستية — واعمالهم العدوانية العنيفة ، فدفعت العمال الى الاتحاد بعد ان عجزت عن ذلك خمسة عشر عاماً من العروض والدعوات ! وادى هيجان الفاشيين وجنونهم ودعوتهم الى المذابح ، وصيحاتهم الحاقدة الموجهة الى العمال (كانوا يدعونهم لصوصاً ودهماء !) والمعارك التي اعتمدوا خوضها لتحقير المؤسسات الجمهورية وتدنيس كل ما في البلاد من عناصر الشرف والعافية والكرامة ، ادى كل هذا الى صهر الشعب في كتلة واحدة عازمة على تجنيب فرنسا ويلات الفاشية وذلها .

طردت هذه الحركة الفاشية الراديكاليين من الحكم ، وجاءت بحكومة بين اعضائها بيتان ولافال ، فكتبت صحيفة

رجعية تقول : لقد انتصرت ثورة اليمين .

ولكن لم يكن ذلك الا انتصاراً مؤقتاً ، فان عواقب السادس من شباط جاءت معاكسة تماماً لآمال الحركة الرجعية ومراميها .

وهكذا قدر لنا ان نشهد مولد حدث عظيم على وهج الحرائق التي اشعلتها العصابات الفاشية ، ولم يكن ذلك ديكتاتورية « بيتان » او « لاروك » ، بل اتحاد الطبقة العاملة ، ونشوء الجبهة الشعبية المتحدة . وبوثبة رائعة ، ولدى اول اشارة من الحزب الشيوعي ، اندفع عمال باريس ناهضين ، وكان ٢٥٠٠٠ عامل قد صمدوا يوم ٦ شباط للمشاغبين ، وفتحت هذه الحركة الاولى ابواب الامل ، وكان الشيوعيون على حق ، فليست الديكتاتورية الفاشية مرحلة محتومة ، وسنشهد نشوء الجبهة الشعبية الموحدة ، في غمرة الصراع ضد الفاشيين ، والطبقة العاملة الفرنسية ، وقد شددت بالتجارب الاممية قبضتها ، ستدلل على انها حقاً سليلة مناضلي الكومون الامينة على تقاليدهم الثورية المجيدة .

دعا الحزب الشيوعي البروليتاريا الباريسية الى الرد . وفي التاسع من شباط احتل الطرقات ٥٠٠٠٠٠ عامل اشتبكوا في كل مكان مع الشرطة ، طوال خمس ساعات ، من ساحة الجمهورية الى محطة الشرق وكان العمال يهتفون « الجمهوريات السوفياتية في كل مكان ! فلتسقط الفاشية ! » وغادر كثير من العمال

الاشتراكيين مصانعهم وانضموا الى رفاقهم الشيوعيين ، وكان سكان الاحياء الشعبية ، حيث تجري المعارك ، يشدون ازر المتظاهرين . وسقط ستة من العمال في ساحة الشرف ليقطعوا الطريق على الفاشية ، فلنمجد هؤلاء الابطال البروليتاريين ، لقد اثبتت الطبقة العاملة ، في معركة الطليعة هذه ، انها تحسن النضال ، والطلقات النارية التي طرحت ابناء الشعب على بلاط الشوارع الباريسية كان لها في اعماق الجماهير صدى بعيد ، وكان الوف المناضلين الجدد، ومئات الالوف تنهض لتحل محل القتلى. لا ، لن تمر الفاشية ، ولن يخلي لها العمال الطريق ، وهزيمتها ستكون نتيجة لعمل البروليتاريا ووحدتها واتحادها مع الطبقات المتوسطة المهددة مثلها في رفاهيتها المادية وحرياتها .

بدأ الشيوعيون المعركة ، فأدت مبادرتهم الى التمهيد لنجاح الاضراب العام الذي اعلن في ١٢ شباط ١٩٣٤ ، وعودة القوى الشعبية الى التنظيم والاتحاد ، وتوقف ٤ ملايين ونصف المليون عاملا عن اعمالهم . لقد دقت مظاهرة فنسان طبول النفير وايقظت الهمم الهاجعة ، وجاء هجوم البروليتاريا فتخطى بقوته اللامتناهية ، الهجوم الغادر الذي قامت به العصابات الفاشية ، واثبت هذا الهجوم العمالي ، لخانقي الحرية ان القوة والشجاعة والاتحاد لازالت كلها الى جانب الطبقة العاملة . كانت فرنسا العاملة ، فرنسا القوم الشرفاء ، تنهض لتقاوم الفاشية ، والبؤس والحرب ، وكان العمال الفرنسيون يسيرون بقيادة الحزب

الشيوعي الفرنسي ليهدوا عمال العالم جميعاً الى الوسيلة الناجعة للنضال ضد الفاشية : وهذه الوسيلة ترتكز على تأليف جبهة شعبية واسعة مناهضة للفاشية تتجمع حولها الطبقة العاملة .

* * *

والتأم المؤتمر السابع عشر للحزب الشيوعي السوفياتي بين ٢٦ كانون الثاني و ١٠ شباط ١٩٣٤ ، وفي هذا المؤتمر القى الرفيق ستالين خطاباً نيّراً جاء فيه :

« علينا ان لا نعدّ انتصار الفاشية في المانيا بمثابة شارة ضعف منيت به البروليتاريا وحسب ، وبمثابة نتيجة حتمية للخيانات التي اقترفتها الاشتراكية الديمقراطية بالطبقة العاملة ، فشقت الطريق للفاشية ، بل علينا ان نعدّ هذا الانتصار بمثابة ظاهرة تدل على ضعف البورجوازية نفسها، ظاهرة تدل على ان البورجوازية أصبحت عاجزة عن ممارسة الحكم بالطرق التقليدية القديمة ، من برلمانية وديمقراطية بورجوازية ، وهذا ما يضطرها للجوء ، في سياستها الداخلية ، الى ضروب ارهابية في الحكم ، انها ظاهرة تدل على ان البورجوازية لم تعد تتمتع بالقوة التي تتيح لها ان تجد مخرجاً لحالتها الراهنة ، على قاعدة من السياسة الخارجية السلمية ، وهذا ما يحملها على اللجوء الى سياسة الحرب (١)

الفاشية هي الحرب ، والنضال ضد الفاشية هو الصراع

(١) ستالين ، قضايا اللينينية .

في سبيل السلام . كان الموقف واضحاً جلياً : فمن جهة ، يشتد خطر الازمة الماثلة في العالم ، والتي تدفع الدول الرأسمالية الى التنازع فيما بينها ، خلال معركة لا رحمة فيها ولا هوادة ، ومن جهة ثانية على الصعيد الداخلي ، يجري استعباد الطبقة العاملة ، بدعم اسس الديكتاتورية والارهاب ، لتقوية مؤخرات الجبهات العسكرية في المستقبل .

كانت رغبة الفئات الحاكمة في القضاء على الديموقراطية ، وسياستها العنيفة الارهابية ، توجبان الينا سياستنا ، فكان علينا ان نحمي الديموقرطية ونحمل الطبقات البورجوازية الصغيرة على النضال في سبيل حرياتها المهددة ، ودعوة البروليتاريا لحماية مصالحها الخاصة ، ومصالح الطبقات المتوسطة ، في وقت معاً ، وهذه وتلك كان يهددهما معاً رأس المال الكبير . كنا بدفاعنا عن الجمهورية ندافع عن الطبقة العاملة ونمهد لها طريق مستقبلها .

ومنذ اوائل سنة ١٩٣٤ بدأنا نشير الى اهمية نشوء جبهة موحدة واسعة ، تجمع الجمهوريين ، والديموقراطيين ، والتحرريين والاشتراكيين والشيوعيين — البروليتاريا والطبقات الوسطى — جبهة يكون من اول اهدافها مجابهة الفاشية ، ولكن القادة الاشتراكيين كانوا يقيمون في وجوهنا الحواجز والعقبات ، وكانوا يقولون : « ان الوحدة العضوية ، باندماج الحزبين ، افضل من وحدة العمل مع المحافظة على استقلال الحزبين ، اذن

فلنحقق الوحدة العضوية ! » فنجيب : « ان افضل طريقة تمهد للاندماج الحزبين هي وحدة العمل بذات » والحاز العمال الى صفوفنا .

وكان بعض القادة الاشتراكيين يريدون ان يحصروا قضية وحدة البروليتاريا ، تلك القضية العظمى ، في حدود ضيقة تافهة ، وكانوا يقترحون ابناء المفاوضات ، بميثاق « عدم اعتداء » وما كانوا يرون في وحدة العمل الا وسيلة لوقفنا عن توجيه النقد الى احزابهم ، فأجبنا بأن الامر لا يتعلق ببلسمة الكبرياء الشخصية الجريح ، بل بتنظيم النضال المشترك ، وبدلاً من ميثاق « عدم اعتداء » اقترحنا ميثاقاً لوحدة طبقية .

وكان النضال الموحد قد بدأ في ارجاء البلاد ، وكانت الارياف تردد صرخة « وحدة العمل » تلك التي اطلقتها عشرات الالوف من المتظاهرين في فنسان ، في ١٢ شباط ١٩٣٤ ، وكانت هذه الصرخة تدوي في كل مكان ، حيث يقود الكولونيل « لاروك » جيوشه المجندة للحروب الاهلية .

وكنا عازمين على بذل التضحيات الضرورية لتحقيق الوحدة ، وفي مؤتمرنا الوطني بايفري ، حزيران ١٩٣٤ ، لم يكن يشغلنا الا فكرة واحدة : الوحدة .

وكان قادة الحزب الاشتراكي يقولون لنا : « لا توجهوا عروض العمل المشترك الى جماهير حزبنا ، بل وجهوها الينا وحسب » . فكنا نجيب : « ليست هذه مشكلة ، فسنخاطب

اعضاء حزبكم ، ثم نخاطبكم ايضاً » ، فيقولون : « كفوا عن انتقادنا » فنجيب : « سنعمد الى انتقاد من لا يحافظ على وحدة العمل ، انتقاداً عنيفاً ».

وكان بعض الاشتراكيين يتهموننا في اخلاصنا ، ولكن ارادتنا الحازمة ، ونياتنا الصافية ، وعنادنا الصامد ، تنفي هذه التهمة وتكذب اصحابها .

كنا نريد الوحدة ، ونطلبها بعناد وحماسة .

ولم تكن المعارك التي سالت فيها ، منذ ٩ شباط ، دماء سبعة عشر شهيداً ، الا البداءة . وفي السباق السريع بيننا وبين الفاشية ، كانت البورجوازية ترمي الى حيازة قصب السبق . فاذا لم نتوصل الى بذل جهودنا ، اكثر فاكثر ، واذا لم نضاعف هذه الجهود مراراً عدة ، في سبيل الجبهة الموحدة ، فقد تكسب الفاشية المعركة ، وتنتصر على الطبقة العاملة ، غير اننا لا نريد ان تتركز دعائم الفاشية في فرنسا .

نريد العمل مهما كان الثمن .

ومهما كان الثمن نريد ان نعمل متحدين !

وكان هؤلاء الذين يريدون المناقشة والتسويف والتأجيل والتحذلق فيما العدو يدق الابواب ، يذكروننا باولئك اللاهوتيين البيزنطيين الذين كانوا يتناقشون في : هل الملائكة ذكور ام اناث ، والعدو على الابواب .

وفي مقاطعة السين عقد الاتحاد الاشتراكي والمنطقة الشيوعية اتفـــاقاً ، وفي ٢٧ تموز ١٩٣٤ ، وفي غرفة صغيرة من مربع بونفاليه وقع الحزبان الشيوعي والاشتراكي وثيقة «وحدة العمل». كانت هذه الوثيقة في نظرنا التزاماً مقدساً ، فالاشتراكيون اخوان لنا ، ونحن نغتبط بانتصاراتهم كأنها انتصارات لنـا . وكانت اكثرية العمال الاشتراكيين الساحقة تتجاوب من اعماق قلوبها مع مشاعرنا الاخوية ، اما في اتصالاتنـا بقادتهم فكان الميثاق في نظرنا بداءة اكثر منه غاية . لقد ركزنا دعائم وحدة الطبقة العاملة ، وعلينا الآن توسيع اتحادنا ليشمل الطبقـــات المتوسطة ، ولنضمن نحن هزيمة الفاشية .

جهدت في مؤتمر ايفري لتبديد سحب الخلاف بيننـا وبين الراديكاليين والجمهوريين المخلصين وكنا نراعي الموقف الجديد والظروف الناشئة عنه وكنا نؤكد ارادة حزبنـا الشيوعي في الدفاع عن الحريات الديموقراطية . ألم يقـل انكلز ولينين « بان النظام الجمهوري هو افضل انظمة الحكم للطبقة العـاملة في ظل الرأسمالية ؟ » وصرحت ، بعد ، بما صرحت به من قبل خمسة عشر شهراً في المجلس النيـابي : « نحن الشيوعيين نحب بلادنا . نحن نحب فرنسة وطننا ، ارض الثورات التاريخية ، ومهد الانسانية والحريات » وكنا نصرح بان المسألة لم تكن تنحصر في الاختيار بين الشيوعية والفاشية بل بين الفاشية والديموقراطية .

كان لهذه التصريحات في ارجاء البلاد صدى بعيد ، ولم تلبث

الحركة الرجعية ان غيرت مواقعها ووجهت رمايتها وجهة اخرى، ففي البدء ، كانت توجه الينا التهمة « باننا ماركسيون لينينيون، اما بعد مؤتمر ايفري ، فشهدنا هذه المهزلة السافرة : اذ وجدت الماركسية اللينينية حماة لم يكن ينتظرهم احد . حماة يتهموننا « بنسيان تعاليم ماركس العظيم ولينين الخالد ! » كنا ندافع عن الحريات الديموقراطية بحرارة وقوة بقدر ما كنا نريد توسيع هذه الحريات وتعميقها ، وليست ديكتاتورية البروليتاريا ، وهي الديموقراطية الكاملة التي تشمل الشعب كله ، الا تطبيقاً لكلمة سان جوست « لا حرية للذين يسفكون دم الحرية ! »

وفي التاسع من اكتوبر ١٩٣٤ وفي الرابع والعشرين منه تكلمت في قاعة بوليبه في باريس ، ثم في نانت ، فدعوت الى الوحدة في كل جبهة شعبية مشتركة في «سبيل الخبز والحرية والسلم» واول مرة وضعت هذه الصيغة التي تقود شعب فرنسا الى النصر ، وقلت ايضاً « ليس صحيحاً انه لا خيار الا بين سياسة الوحدة القومية ونظام حكم السوفيات . بل ثمة مجال لسياسة شعبية بوسعها ان تطور الحرية فيما هي تصحح اوضاعها » .

كانت الحركة الرجعية تفهم حق الفهم ان الجبهة الشعبية تستطيع رد هجمات الفاشية وافتتاح عهد من التقدم السياسي والاجتماعي في بلادنا ، فحاولت الرجعية ان تلقي الخوف في قلوب الراديكاليين كما حاولت من قبل ان تستثير مخاوف الاشتراكيين ، واولئك الذين كانوا الى الامس القريب يشتمون الراديكاليين نصبوا الآن انفسهم اساتذة وموجهين . وكانوا

يتخذون لهجة الجلال والرصانة وهم يشرحون لهم ان ليس بوسعهم « تلطيخ سمعتهم باتحـــادهم مع الشيوعيين » . وكانت الرجعية تعتمد التهـديد آناً والتملق آناً لشق صفوف الحزب الراديكالي ، وبذلت جهود اجبارية لاحبـاط مساعي الدساسين الداعين الى التفرقة ، واعتمدنا لعملنـــا قاعدة ، فلا نتدخل في الشؤون الداخلية للمنظمات المشتركة في الجبهة الشعبية ، وهكذا جاهد الشيوعيون في سبيل وحدة صفوف القائلين بالجمهورية .

وعلى اثر انتصار الجبهة الشعبية في الانتخابات البلدية وإزاء عظمة المهرجانات التي اقيمت في عيد ١٤ تموز ١٩٣٥ لم تعترف الجماعة الرأسمالية المسيطرة وعملاؤها بالهزيمة بل كانوا يقولون : استطاعت الجبهة الشعبية ان تنشأ لمقاومة « شيء » ولكنها ستعجز حتماً في المحافظة على وحدتها « لتحقيق شيء » ايجابي ، وسيتبدد شملها اذا حاولت صياغته وتنفيذه ، ولا شك في ان صياغة برامـج موحدة تلتزمهـــا الاحزاب الشيوعية والراديكالية والاشتراكية كانت تلاقي بعض الصعوبات وقد تصبح مستحيلة التنفيذ اذا تمسك كل حزب ببرنامجه الخاص .

وللحزب الشيوعي منهجـــة المعروف الهادف الى التطور الاجتماعي الشامل ، ولكنه لا يهمل مع ذلك المطالب المباشرة ذات الطابع السياسي او الاقتصادي . وكان الاتفاق ممكناً على قاعدة هذه المطالب المباشرة الملحة . والرغبة المخلصة في الاتحاد تتطلب بعض التسامح ولكن القادة الاشتراكيين بدأوا يوجهون

الينا تهمة التفاهمية والرجعية ، ولاننا كنا في سبيل صياغة منهج عملي ، اردنا ان يتضمن مجموعة من الالتزامات الدقيقة المحددة ، لا ان يكون سجلاً لوعود خلابة تلقى الى الناخبين لاغرائهم . واظهرت الايام صحة رأينا ، فالذين كانوا يتمدحون بالشجاعة والاقدام ، حين كنا نبحث في الصيغ العامة، بدأوا يترددون، ويتراجعون حين دارت الابحاث في المطالب الملموسة المحددة ، والذين كانوا يأخذون علينا تساهلنا عهدَ صياغة البرامج المشتركة بدأوا هم انفسهم يتهموننا بالعناد حين تشددنا في طلب التنفيذ الناجز . كان البرنامج المشترك يطالب باعادة الاطمئنان الى النفوس ونزع السلاح من المنظمات الفاشية والفرق القومية ، وحلها حلاً فعلياً ، والغاء القوانين التي تحد من حرية الصحافة ، وضمان الحريات النقابية والحقوق العمالية وتطبيقها على الجميع ، وكان يطالب بتأميم الصناعات الحربية والتعاون الامني في اطار عصبة الامم ، وتوسيع نظام المعاهدات بين الدول ليشمل الدول كافة ، وكان يدعو الى النضال في سبيل السلام ؛ وعلى صعيد الاقتصاد ، كان البرنامج الموحد يرمي الى رفع مستوى معيشة الجماهير وتأسيس صندوق وطني للعاطلين عن العمل ، ونقص ساعات العمل اليومية ، وصرف رواتب تقاعدية ، للشيوخ من العمال ، ومراقبة اسواق الاعتدة الحربية ، واصلاح ضريبي وجمركي يأتي في الاتجاه الديموقراطي . هذه هي الخطوط الكبرى لبرامج الجبهة الشعبية الموحدة ، ولكن هذه البرامج ظلت رغم انتصار الجبهة في انتخابات ١٩٣٦ حبراً على ورق ،

في اكثر بنودها ، وماذا ؟ ذلك لأننا لم ننجح قط في التغلب على الروح العدائية عند القادة الاشتراكيين والراديكاليين الذين كانوا يعارضون في تعيين لجان الجبهة الشعبية في المصانع والقرى ولم ننجح في حمل القادة على القبول بعقد مؤتمر وطني عام للجبهة الشعبية الموحدة مؤلف من مندوبين يعينون في الاجتماعات .

ولو اقيم هذا المؤتمر وانبثقت عنه لجنة وطنية لاستطاعت هذه اللجنة ان تشرف على تطبيق البرامج الشعبية التي كنا اول من قام بها والتي دلت على ايجابيتها وفعاليتها ، ولكن هذه الجبهة لم تبق اكثر من تفاهم بين «الرؤساء» ...

وكنا نواصل جهودنا لتوسيع الجبهة الشعبية ، وتركيز دعائم الوحدة العمالية ، ولم نتوقف قط عن العمل في سبيل الوحدة التامة وفي سبيل حزب عمالي واحد ، وكان علينا تحديد المباديء الاساسية لهذا الحزب الموحد ، فقد رأينا ، من جهة ، ان سياسة الخيانة التي اعتمدتها الاشتراكية الديموقراطية ، ادت الى هزائم بروليتارية عاناها العمال في بلدان عدة ، وبخاصة في انتصار الديكتاتورية النازية في المانيا ، ومن جهة ثانية رأينا ان السياسة الثورية التي اعتمدها الشيوعيون قد ادت الى الديموقراطية السوفياتية ، بانية الاشتراكية . واخيراً : لا يستطيع الانسان ان يفكر بانشاء حزب موحد بلا انضباط حازم دقيق اقره العمال في حرية تامة ويمكن تطبيقه على الجميع ، وكان يمكن ان تلاقي صياغة وثيقة للوحدة العمالية تقدماً محسوساً ، ولكن القادة

الاشتراكيين لم يتحملوا يوماً استمرار المحادثات في منظمات القاعدة ولا اتاحوه . وكانوا يعارضون في جعل مناقشاتنا ، بلجنة التوحيد ، علنية .

منـــذ زمن طويل ، والشطر المستنير من العمال الاجراء منتظم في نقابات . فالدفاع عن الحقوق العماليـة ، مادية كانت ام معنوية ، والصمود دونها في وجوه اصحاب العمل ، والعمل الناشط المشترك لتحسين مصير الطبقة العاملة ، هي كلها اهداف العمل النقابي . فبوسع الحركة النقابية اذن ان تجمع في صفوفها جميع العمال الاجراء ، مهما كانت مذاهبهم السياسية ومعتقداتهم الدينية؛ وعقيب الحرب العالمية الاولى زرع القادة الاشتراكيون ، وعلى رأسهم ديمولان ، الفتنة والشقاق في الاوساط النقابية ، فنشأ اتحادان عامان للعمل ، يتنازعان النفوذ على الطبقة العاملة .

وكان الحزب الشيوعي يؤازر جهود المناضلين والنقابات الداعية الى الوحدة ، لوضـــع حد للانشقاق ، وادى ذلك الى الاتفـــاق يوم ٢٧ ايلول ١٩٣٥ ثم الى قرارات مؤتمر تولوز التوحيدي (شباط ١٩٣٦) فنشأ (سى جى تى) واحد . فما لبث ان انضم اليه ما يزيد عـلى خمسة ملايين عضو من العمال ، ومن الثاني والعشرين الى الخامس والعشرين من شهر كانون الثاني انعقد المؤتمر الثامن لحزبنـا الشيوعى ، فمهد هـذا المؤتمر لانتصار الجبهة الشعبية في الانتخابات التشريعية .

وكانت الانتخابات البلدية ، في نوار ١٩٣٥ ، والانتخابات

الاقليمية في الصين قد اشارت الى تصاعد القوى الديموقراطية ، وفي اثناء انعقاد مؤتمر حزبنا ، كنا نشعر بانتصار مقبل عظيم ، في انتخابات نيسان ١٩٣٦ ، وفي ذلك المؤتمر ذكرت المندوبين بأن ثرواتنا الوطنية الضخمة ، محصورة بأيدي اسر رأسمالية معدودة ، ولذلك ففرنسا ، وهي من اغنى بلاد الدنيا واجملها ، تجد نفسها على شفا الانحطاط والزوال ، بدلاً من ان تزدهر وتسعد ، وتجد نفسها ممزقة لا موحدة . وضعيفة لا قوية .

لقد عمل التطور الرأسمالي طوال القرن التاسع عشر على تركيز دعائم اقطاعية جديدة ، وهي اقطاعية المال ، انها اقل عدداً من الاقطاعية الزراعية القديمة ولكنها اشد بأساً ، وامضى سلاحاً ، فالرأسماليون يسلبون الحرفيين اموالهم ، ورؤوس الاموال الكبرى تقضي على الصغرى وتمتصها . والتمركز الرأسمالي الذي يقضي على مشروعات صناعية عدة ، يزيد في قوة المشروعات الباقية ، وهكذا تنشأ مصانع عملاقة ضخمة تستخدم الجماهير الساحقة من العمال الاجراء ، لقد حكرت الثروات الناتجة عن عمل الاجيال الفرنسية أقلية من الطفيليين تستثمر لصاحبها جماهير العمال ، فيعاني الشعب الفرنسي الضيق والبطالة والبؤس ، فمن هم سادة فرنسا ؟

« في فرنسا اليوم حوالي خمسين الف شركة مساهمة يضاف اليها بضع مئات من المصارف الخاصة وعدة آف من التكتلات الصناعية التي استطاعت المحافظة على ما يشبه الطابع الفردي ،

ولكن اي هذه المؤسسات نجدها في المراكز القيادية وما عددها ؟

هناك حوالي ثلاثين شركة مالية ومثلها معدنية وعشرون شركة في كل من صناعة الفحم والمناجم . وثمة ثلاثون شركة للكهرباء وعشرون شركة للتأمينات والضمان وعشر شركات للمنتوجات الكيماوية ومثلها للغاز والماء ، واخيراً نجد بعض الشركات الكبرى للخطوط الحديدية ، شركات النقل البحرية ، وهذه كلها لا تتجاوز المئتين عدداً ، وهي متحدة فيما بينها ، متصلة ، متخالطة ، يتلقى بعضها نفوذ بعض، ويدعم بعضها بعضاً، منشئة فوق آلاف الشركات الصغرى ، اسرة رأسمالية قائدة آسرة . ان اصحاب الاسهم في هذه الشركات المئتين ، وقادتها ، هم المئتا اسرة التي تسيطر فعلاً على مقدرات السياسة والاقتصاد في فرنسا .

لقد عرفت فرنسا، منذ ١٣٠ عاماً ، ثلاث ثورات ، وغيرت نظام حكمها خمس مرات ، وخلال هذه الاضطرابات المختلفة ، وهذه الخضات والثورات ، حافظ سادة القوى المالية وحدهم على ثباتهم وسلطانهم ، فتجسد فيهم ، خلال انظمة الحكم المختلفة ، سلطان رأس المال .

ان اصحاب « بنك فرنسا » الاثني عشر هم انفسهم مديرو الشركات الـ ٧٥ وهم يتمتعون بمئة وخمسين مقعداً ، وهذه الشركات الـ ٧٥ موزعة كما يلي :

٣١ مصرفاً خاصاً — ٨ شركات للضمان — ٩ للخطوط الحديدية — ٨ مشروعات للخطوط البحرية ، — ٧ شركات للمعادن وصناعتها — ٨ شركات لمناجم الفحم — ١٢ للصناعات الكيماوية — ٦ مشروعات منوعة .

والرأسمالية تصب كلها في هذا الاتحاد الرهيب ، فحين يجتمع هؤلاء القادة تمتد اصابعهم الاخطبوطية الى جميع ارجاء البلاد فلا تفلت ذرة من النشاط الاقتصادي من مراقبتهم ونظراتهم المتفحصة ، انهم سادة البلاد الحقيقيون ، فهم يمنحون الحكومة والمصارف والمشروعات ، القروض المالية ، او يرفضون ، وهم يصرفون اوراق الخزينة المالية او يتمنعون عن صرفها ، وهم يتلاعبون بالعملة ، فيحمون الفرنك او يرفعونه او يخفضونه... فابحاثهم ومناقشاتهم تستوحي ، قبل كل شيء ، مصالح المشروعات الرأسمالية المالية التي يمثلونها .

هذه هي القوة التي تتحكم بالحكومات وتملي عليها رغباتها اوامر حاسمة ، انها هي التي تقيل الوزارات فتخرق حرمة المفاهيم الديموقراطية الانتخابية ، انها الاسرة الرأسمالية المحدودة التي تفرض على شعب فرنسا حكومات تخدم رأس المال(١) . »

كانت معركتنا ضد المئتي اسرة ترمي الى ضمان مستقبل فرنسا ، وفي سبيل هذه الغاية كان علينا العمل على توحيد الامة

---

(١) موريس توريز — في سبيل سياسة فرنسية قوية .

الفرنسية ضد الفئات المسيطرة الآمرة التي تستثمر الشعب .

واعلن الحزب الشيوعي رأيه القائل بمقاومة تخفيض الاجور، وتخفيض قيمة النقد ، مطالباً باخذ الاموال من اولي الثراء الفاحش ، مقترحاً ضرائب ضخمة تصاعدية على الثروات الكبرى بمعدل ٣٪ للثروات التي تجاوز ٥٠٠ الف فرنك الى ٢٠ بالمئة للثروات التي تتجاوز الخمسين مليوناً . وكنا نذكر بما قاله ماركس في هذا الصدد :

« ليست الضريبة التصاعدية تدبيراً بورجوازياً وحسب ، يمكن تطبيقه في صلب علاقات الانتاج الراهنة ، كبيرة كانت ام صغيرة ، بل ان الضريبة التصاعدية هي ايضاً الوسيلة الوحيدة لتوثيق روابط الطبقات المتوسطة ، في المجتمع البورجوازي ، بالجمهورية « الشريفة » ، وهي كذلك الوسيلة الوحيدة لتخفيض الديون العامة، وقهر الطبقة البورجوازية العليا عدو الجمهورية(١)»

واعلنت في تقريري ان الشيوعيين، هؤلاء الاممين، ليفخرون اكبر الفخر ، بعظمة بلادهم وامجادها التاريخية ؛ انهم يعتزون باسلافهم ابطال ١٨٩٣ ، ويعتزون بثوار شباط وحزيران١٨٤٨ ، ويتمجدون بابطال « الكومونا » .

وانهم يوجهون تحية واحدة الى جماهير الفلاحين الكادحين ،

---

(١) كارل ماركس - صراع الطبقات .

والعمال المناضلين ، والنخبة المثقفة التي تألفت منها عظمة بلادنا وامجادها .

والشيوعيون يفضحون ويحاربون اولئك الذين يلطخون تراثنا القومي ويدفعون البلاد الى دركات الانحطاط والخمول ، فنحن الورثة الحقيقيون للفكرة الثورية التي نادى بها الانسيكلوبيديون في اواخر القرن الثامن عشر ، وورثة المادية الفلسفية التي جاء بها ديدورو وهيلفيتيوس واولباخ . ونحن امتداد لتلك الجبهة التي ناضلت عند طليعة الانسانية .

وعلى رغم الخونة والطفيليين ، وفي وجوههم ، وضدهم ، نريد وحدة الامة الفرنسية . لقد اخذنا نشيد المارسيلياز عن احفاد مهاجرين كوبلنتز وخلفائهم ، والمارسيلياز انبثق من احشاء فرنسا الثورية ، فرنسا ١٧٩٢ ، فرنسا اليعقوبيين والجيروندبين ، الناهضين في وجه الملوك والاقطاعيين . وهذا النشيد هو التعبير اللاهب عن ارادة الشعب الثورية ، عن وثبته واندفاعه وبطولته وشخصيته ، انه هو الثورة...

واخيراً عكفت على بعض المسائل الداخلية في الحزب فقلت : لقد سقّى النضال حزبنا . فالنضال افرند الشيوعيين . ولكن علينا ان نبذل جهوداً جديدة ونتقدم الى الامام، علينا ان نجعل حزبنا حزباً عظيما يقود الجماهير ، ان يصبح حزبنا هو حزب الجماهير . وحيال تدفق المنتسبين الجدد اضحت لقضية الملاكات الحزبية اهمية كبرى :

اي الاعتبارات يجب ان يقودنا في اختيار الملاكات ؟

اولاً ــ الاخلاص العميق للطبقة العاملة ، والامانة للحزب ، نبلوها في المعارك ، والسجون ، والاحداث الخطيرة والمحن .

ثانياً ــ الاتحاد الوثيق بالجماهير ، لا نريد نظريين متحذلقين ، بل زعماء شعبيين يعرفون الجماهير حق المعرفة ، وتعرفهم الجماهير .

ثالثاً ــ روح المبادرة وتحمل التبعات ، والقدرة على الاتجاه والتوجيه بسرعة ، واتخاذ القرار ، باستقلال ، في جميع المواقف ، مهما كانت خطيرة ؛ والذي يخشى التبعة ليس زعيماً ، ومن لا يحسن التدليل على روح المبادرة ليس بلشفياً .

رابعاً ــ روح الانضباط والنظام وصلابة البلشفي ، سواء في النضال ضد العدو الطبقي ، او ضد الانحرافات عن خطة الماركسية اللينينية ، وفي تطبيق جميع القرارات الصادرة عن عضويات الحزب النظامية .

وختمت تقريري بهذا الشعار الذي يعبر عن ارادة الفرنسيين العميقة ، حتى ان اكثر الاحزاب حاولت تبنيه وهو : « عاشت فرنسا حرة قوية سعيدة ! » ولكن حزبنا بين جميع الاحزاب ، هو وحده الذي يستطيع ان يجعل من هذا الشعار حقيقة حية ، ولهذا نضيف الى كلماته :

« كما يريدها وكما سيجعلها الشيوعيون » .

الفصل الرابع

فرنسا ازاء الخطر الهتلري

الحزب الشيوعي هو حزب السلام ، وقد تولد من النضال ضد الحرب ، ومن الارادة الحازمة التي عبر عنها مؤتمر تور سنة ١٩٢٠ ، والتي تقول بعدم السماح بتجديد مأساة الاممية الاشتراكية الثانية . ونما الحزب خلال المعارك التي خاضتها الطبقة العاملة ضد احتلال الروهر (١٩٢٣) وضد حروب اللصوصية العدوانية ، في مراكش وسوريا (١٩٢٥ ...)

وكان الحزب الشيوعي ، بتعبيره عن ارادة الشعب الفرنسي السلمية ، يؤازر مؤازرة حازمة ، جميع القوى المناضلة في سبيل السلم التي تنهض في جميع ارجاء العالم لتجابه قوى الحرب .

وكانت الرأسمالية ، في اوروبا معاهدة فرساي ، قد ضاعفت التناقضات ، ودوافع العداء . وكانت الفاشية تهيج الاحقاد القومية ، وتجتهد في اعداد حرب عالمية ثانية ، وسرعة السباق نحو التسلح تتزايد ، وتعددت مكامن الحريق ، وتضاعفت افواه

النيران . وخطبت في مؤتمر فيلبران عام ١٩٣٦ فقلت :

تتعايش في العالم الرأسمالي المعاصر فئتان من الدول : فئة افادت من اوضاع سنة ١٩١٩ ، وتريد ان تحافظ على تلك الاوضاع ؛ وللحرب بالنسبة اليها سيئات اكثر مما لها من فوائد، وفئة تريد ان تزحزح بقوة السلاح الاوضاع الناشئة عن معاهدات ١٩١٩ ؛ وفي داخل الفئة الاولى نجد اصحاب الصناعات الحربية، والعسكريين الذين ينادون بسياسة مسايرة ازاء اهداف القوى الفاشية ...

وكانت الدول التائقة الى اعادة تقسيم العالم (المانيا ، ايطاليا ، اليابان) تتجمع اكثر فأكثر وتوثق روابطها فيما بينها . فعلينا ان ننظر الى العدوان الايطالي على الحبشة بمثابة مرحلة اولى لصراع مسلح ادت اليه معارك خاضتها القوى الاستعمارية الاعظم ايغالاً في العدوان ، لقلب خارطة اوروبة وآسية رأساً على عقب ، بطلقات المدافع .

وضاعفت الدول الفاشية من روحها العدوانية الموجهة الى الاتحاد السوفياتي . ذلك لان البلاد الاشتراكية هي ، في اساسها ، بلاد السلم ، وهي المناضلة الحقيقية عن الديموقراطية والتقدم ، وكان الاتحاد السوفياتي يبذل جهوداً جبارة لانقاذ السلام ، فما إن تأسست الجمهوريات السوفياتية ، ٧ نوفمبر ١٩١٧ حتى وجهت الى العالم رسالة تدعو الى السلام ، وتناشد الشعوب المتحاربة المسارعة الى وضع حد للمجزرة ، وكانت تقترح عقد

صلح ديموقراطي عادل ، فأجابت الحكومات الاستعمارية هذه الدعوة بزيادة فظائعها وجرائمها ، فاكتسحت الجيوش الالمانية اوكرانيا واقتربت من بتروغراد ، فتصدت الفصائل الاولى من العمال والفلاحين (التي اضحت فيما بعد الجيش الاحمر الباسل) وصدت الغزاة البرابرة ، واحرزت في ٢٣ شباط ١٩١٨ انتصاري بسكوف وناروفا ، وبعد الالمان ، جاء دور جيوش الحكومة الفرنسية ، حليفة روسيا القيصرية ، وهي التي نظمت شؤون التدخل ، واذكت المؤامرات المناهضه للثورة ، واعدت عصابات الحرس الابيض ، وجهدت ، خلال سنوات عدة ، لسحق نظام الحكم السوفياتي . في تلك الاثناء نهض الجنود الفرنسيون والبحارة الشرفاء المرابطون في البحر الاسود ، وانقذوا شرف الشعب الفرنسي ، حين رفضوا تسديد اسلحتهم الى مهد الثورة الاشتراكية الاولى .

وبعد ان نجحت الحكومة السوفياتية في صد هجوم الدول الرأسمالية الاربع عشرة ، وفي سحق القوى المناوئة للثورة ، عمدت الى نشاط عنيد مستمر ، في سبيل تنظيم السلام ، ونزع السلاح من الدول كافة . وبدأ مندوبو الحكومة السوفياتية ، منذ مؤتمر جنوا ١٩٢٢ ، يطالبون بتحديد التسلح ، واقترحوا سنة ١٩٢٧ منهجاً لنزع السلاح ، جزئياً ، ولكنهم كانوا يلاقون دائماً الآذان الصماء . وعادت الحكومة السوفياتية الى بذل جهود مماثلة سنة ١٩٣٢ . ولكن عبثاً . وكانت سياسة الاتحاد

السوفياتي السامية ترتكز دائماً على قوة اقتصادها الاشتراكي المتصاعد دوماً ، وعلى قوة جيوشها الباسلة التي لا تضاهى ، وعلى المعونة الحقيقية التي تجدها عند الجماهير الشعبية في العالم اجمع.

وفي حين كانت المانيا الهتلرية ، وقد اسكرتها النشوة العسكرية ، وافتضحت نيّاتها العدوانية ، تنسحب من عصبة الامم، كان الاتحاد السوفياتي ينخرط في هذه الجمعية عام١٩٣٤. واقترح السوفيات على دول العالم نظاماً للضمان العالمي المشترك . وكان من شأنه ان يلقي الخشية في قلوب المعتدين ، لو طبق ، وكانت المعاهدة السوفياتية الفرنسية الموقعة في موسكو ١٩٣٥ احدى الضمانات الاساسية للسلام في العالم ، ولا شك في ان ممثلي البورجوازية الفرنسية لم يذهبوا الى موسكو بدافع من عطفهم على الديموقراطية او تحمسهم للاشتراكية، بل ان الخطر الجرماني المتزايد كان يحمل البورجوازيين الفرنسيين على العودة الى سياسة فرنسا التقليدية تلك التي تمليها احكام جغرافية على رغم اختلاف النظم السياسية ، ففي القرن السادس عشر تحالف فرانسوا الملك المسيحي جداً ، مع السلطان سليمان الثاني ، لمقاومه شارلكان . وفي القرن السابع عشر لم يتردد الكاردينال ريشليو في التفاهم مع غوستاف ادولف ، ملك السويد البروتستانتي . وعند نهاية القرن التاسع عشر سعت الجمهورية الفرنسية الثالثة الى التحالف مع القيصر نقولا الثاني .

كان ميثاق التحالف الفرنسي السوفياتي وسيلة تضمن لفرنسا

الامن والسكون والسلام ، في قارة اوروبية تهددها مطامح كاسرة ، لمجتاح تمل بفكرة المدى الحيوي والفتح . ولم يمض على توقيع الميثاق زمن قصير ، حتى عمدت البورجوازية الفرنسية الرجعية الى مهاجمته ، واضعافه واطراحه . كانت فكرة مقاومة الشيوعية تعمي بصائر البورجوازيين عن اوضح معاني المصالح الفرنسية واكثرها بدهية... وبعد مضي ثلاث سنوات على توقيع الميثاق الفرنسي – السوفياتي ، تجاهله الحاكمون الفرنسيون وتناسوه ، فلم يبق في نظرهم الا قصاصة من الورق... وفي مونيخ.. داسوه بالاقدام ...

وبالغشاوة التي يختم بها جوبتير على قلوب الذين قضى بفنائهم ، كانت الطبقة الحاكمة الفرنسية تفضل التفاهم مع هتلر ، عدو فرنسا اللدود المبين ، على التفاهم مع الاتحاد السوفياتي ، ولو افضى بها ذلك الى هلاك فرنسا...

والطبقة الحاكمة – الى هذا وذاك – لم تقف هذا الموقف لجهلها بمرامي الطاغية هتلر...

فمنذ ١٩٢٥ عرض هتلر اهداف سياسته الخارجية ومبادئها في كتابه « ماين كامف – كفاحي » ولقد نشر انجيل القومية – الاشتراكية هذا في ارجاء المانيا ، وطبعت منه ملايين النسخ . وكان المعلمون يشرحونه في المدارس ، وضباط الاحوال المدنية يهدونه الى المتزوجين الجدد ليضعوه تحت وسائدهم...

وكان الديكتاتور يعرض في كتابه مذهباً لتفوق الدولة

الجرمانيـــة ، مؤسساً على تفوق مزعوم للعرق الجرماني الذي سيكون في مستقبل قريب « شعباً من السادة » مدعواً للسيطرة على العالم .

وكان هتلر يدعو الى ان تضم حدود الرايخ الالماني جميع الشعوب التي هي من دم جرماني تسكن الاراضي الدانمركية والتشيكية والنمساوية والبولونية والروسية والفرنسية ! كان هتلر يرمي الى اعادة حدود المملكة الجرمانية المقدسة ، ثم الانطلاق لغزو الشرق .

ونحن نعرف ان الامبراطورية الرومانية المقدسة كانت تضم ، مع المانيـة ، اراضي هولندة وبلجيكة (والفلاندر والالزاس واللورين والفرانش كونتيه ، اي خمس عشرة مقاطعـة من مقاطعاتنـــا الحالية !) والنمسة واوسترية وتشيكوسلوفاكية والشطر الغربي من بولونيـــة . كان هتلر يرمي الى تأسيس امبراطورية شاسعة الرقعة ، تمتد من بحر المانش الى بحر قزوين ، ومن المحيط المتجمد الشمالي الى البحر المتوسط .

ولبلوغ هذه الاهداف واخضاع اوروبا لحكمه الوحشي ، كان لهتلر وسيلة ، وسيلة واحدة : الحرب !

فالسلام يتناقض تماماً وطبيعة القومية الاشتراكية ، فهتلر يؤكد ان الانسانية نشأت في غمرة المعارك الدائمة ، اما السلام المستتب فيؤدي بها الى القبر . « السلام ؟ انه وهم يناقض احكام الطبيعة والعقل ! »

ويتدفق حقد هتلر على فرنسا ، في صفحات كتابه كله ، عاتياً مزمجراً : « ان علينا اخيراً ان نتبين بوضوح هذا الواقع : ان العدو المميت ، العدو البربري ، العدو الذي لا يرحم ، بل يتربص بالشعب الالماني الدوائر، كان ولا يزال : فرنسا ! ولا عبرة في من حكم فرنسا او سيحكمها : سواء البوربون ام اليعقوبيون ، ام نابليون ام الديموقراطيون البورجوازيون ام الجمهوريون ام البلاشفة الحمر ! »

ويشفع هتلر هذا التأكيد الوارد في كتابه او يفسره « بأفكار» بلهاء فيقول :

« وكانت فرنسة ، وما تزال ، العدو الذي يجدر بنا ان نخشاه اكثر من سواه . فهذا الشعب الذي ينحدر اكثر فأكثر الى درك الزنوج ، يعرّض وجود العِرْق الابيض ، في اوروبة، للخطر ، وذلك بمؤازرته اليهود ، في اهدافهم للسيطرة على العالم . »

وفي الخامس من سبتمبر ١٩٣٦ ، ألقيت خطاباً في مجلس النواب ضد سياسة عدم التدخل ، فأوردت هذه العبارات الهتلرية الوقحة ، لافضح مراميها واوضح اهدافها ، وحاول احد عملاء هتلر ان يقاطعني ، وهو النائب فيليب هنريو ، الذي كشفت الايام فيما بعد ، عن خيانته ...

في الصفحة ٧٦٥ يقول هتلر :

«ستنشب حرب ثانية ، وذلك لا شك فيه ، فعلينا ان نبادر

قبل نشوبها ، فنعزل فرنسا ، ونحسن عزلهـــا ، حتى تتحول الحرب الى دفـاع المانى ضد فرنسا ، فرنسا وحدهـا ، لا الى صراع المانى ضد العالم اجمع ، وعلينا ان نقنع العالم بأن فرنسا هى التي تعكر صفو الامن وهي التي تقف حجر عثرة في سبيل السلام .

ثم يضيف :

«لا ترى المانيا في افناء فرنسا الا الوسيلة التي تتيح للشعب الالماني التوسع والنمو في ارض خالية ، مـا استطاع التوسع والنمو .

نحن اليوم في اوروبا ثمانون مليوناً ، ولن تقر بنجاح سياستنا الخارجية الا اذا اصبحنا ، في اقل من مئة عام ، ٢٥٠ مليوناً من الالمان ، يعيشون في هذه القارة الالمانية . »

كان لمثل هذا الجنون وهذه الرعونة ان يزيلا الغشاوة عن الابصار ، ويفتحـا البصائر على حقيقة الطاغية البربري ، فينهض الفرنسيون جميعاً متحدين ، لفضح الاعتداء قبل وقوعه ، والتأهب لصده ، ولكن شيئاً من ذلك لم يحصل !

فالطبقة الحاكمة الفرنسية ، وقد اعماها خوفها من الشعب ، وحقدها عليه ، كانت تولي وجهها شطر هتلر ، وترى فيه حارس اوروبة ، حارساً له من القوة ما يساعده على صيانة الامتيازات الرأسمالية ، والقضاء على البلشفية قضاء مبرماً .

وعلى الرغم من ضعف المذهب افتري ، وسخافته ، بدأت خطة هتلر تلاقي النجاح ، فكانت فكرة مناهضة الشيوعية افضل منطلق لمشروع هتلر واهدافه في العدوان والفتح . وكان يشد ازره في صليبيته ضد البلاشفة ، رأسمـــاليو فرنسة وانكلترا واميركا ، وكانت الفاشية تلقي بذورهـا في بلدان اعدائها ، وكانت حربها في سبيل الفتح والعدوان مصاحبة لحرب اهلية ضارية تثبت على الصعيد العـالمي ، وكسبتها الفاشية بسرعة ودون كبير عنـاء ، لان طابورهـا الخامس كان يشل دفـاع خصومه ، في كل مكان ، مدخلاً عملاءه واعوانه في مجـالس الحكومات ، فاتحاً الطريق لطوابيره الآلية العاصفة ، وكانت الفاشية تعتمد الخيانة ايضـاً ، مثل اعتمادها قوة السلاح ، لبناء الامبراطورية الجرمانية الجديدة ، وتثبيت دعائمها مدة الف عام على الاقل ...

وكان هتلر يستخدم الفكرة المناهضة للشيوعية كأنهـا جواد طروادة الخشبي :

« سأكون وثيق الاتصال برجال يؤلفون حكومة جديدة ، حكومة تلائم اهدافي ، وهؤلاء الرجال، سنجدهم في كل مكان ، بل لن نتجشم المشقة في شرائهم ، انهم سيقصدوننـــا من تلقاء انفسهم، يدفعهم الطموح او الغفلة او النزاع الحزبي او الكبرياء ، وسنوقع معاهدة الصلح قبل بدء القتـال... وفيما نحن نحارب العدو بجميع مـا لدينـا من اسلحة ، نعمل ايضاً لشل قواه

بحرب الاعصاب . وسنعمد الى اشعال نار الثورة في فرنسة ، وسأدخل البلاد الفرنسية محرراً ، وسينظر الينا البورجوازي الفرنسي الصغير ، بوصفنا ابطال نظام اجتماعي عادل جديد ، ورواد سلم دائم. فهؤلاء البشر اصبحوا لا يرغبون في سماع شيء عن الحرب والعظائم . اما انا فأريد الحرب ، وستكون الوسائل جميعها صالحة في يدي ... الحرب ... هي انا . »

بهذه العبارات التي صدرت عن هتلر في تموز ١٩٣٢ كان يعرض خطته ، بدقة في التفاصيل ، تنم عن تصميم سابق وتفكير طويل ، اضف الى هذا ان هتلر نفذ هذه الخطة بحذافيرها ، فمنذ ذلك العهد كان هتلر يشير الى اتباعه المخلصين بأنه انما يهدف للسيطرة الشاملة :

« مهما عظمت مساعينا وتركزت قوانا ، فمساعينا تظل فاشلة ان لم نسيطر على اوروبة كلها .. ان المانية هي اوروبا . نحن نحتاج الى اوروبة ومستعمراتها فالمانيا الراهنة ليست الا بداءة ، ومدانا الكامل الصحيح ، مدانا نحن الالمان ، هو اوروبة . »

ولتحقيق هذه المطامح المجنونة يعتمد هتلر احط الغرائز واحقرها ، واكثر الوسائل مكيافيلية ، وفلسفته ترتكز على اذكاء روح القومية الالمانية ، الى درجة الجنون ، وعبادة الذات القومية ، والافكار المناهضة للسامية ، وعلى الوحشية والحقد ، واعتبار الانسان آلة مسخرة صماء ، وبرمجة القسوة وتنظيمها ، وتقديس اللصوصية ...

ان اساس الهتلرية هو الرغبة العميقة في القضاء على كل ما يتعارض مع عرق السادة الآريين ، في سيرهم نحو السيطرة اللامتناهية ، فترى روزنبرغ احد اصحاب النظرية القومية الاشتراكية ، يمجد في حرارة وحماسة ، عقيدة الدم التي ستفجر الثورة العالمية ، وتطلقها من عقالها ، تحت شعار الصليب المعقوف وكان روزنبرغ يريد ان تعرقل هذه « الثورة العالمية الفاشية » مجرى التاريخ ، وتدفعه الى الوراء ، وتضع حداً لتلك الحركة التحريرية التي ما فتئت ، منذ عهد النهضة ، اثناء الثورتين الفرنسية والروسية ، تحمل الانسانية الى مجتمع افضل واعدل .

اذن كان هؤلاء البرابرة المسلحون يدفعون الى هدم القيم الانسانية كلها .

واليوم وقد تلاشى كاهن القومية الاشتراكية الملعون ، وخلّف ركاماً من الخرائب ، وسيولاً من الدماء والدموع ، لا تزال جراثيم التازية العرقية السامة ماثلة لا في المانيا وحدها بل في بلاد اخرى ، وفي الولايات المتحدة بخاصة ، حيث نرى التمييز الفظيع بين البيض والزنوج ، تمتد الحركة الفكرية وتستمر ، وتذكيها القوى الرجعية ، وقد تعتمد الفاشية على « افكار » مختلفة لبلوغ اهدافها ، ولكن انى وجد « مفكرون » يخدمون الفئات الرأسمالية ، بمذاهبهم ويدعون الى العرقية ، فثمة خطر فاش ...

وهكذا قامت في وجه سياسة الاتحاد السوفياتي السلمية ،

ورغبته في نظام ضمان جماعي ، وسلام شامل لا يتجزأ ، سياسة المانيا الهتلرية المضطربة الحاقدة ، واراد الديكتاتور النازي ان يحل الحرب في « مناطق محدودة »، وفق خطة تدريجية «ذكية» ليتاح له سحق خصومه واحـــداً واحداً على نحو « افضل » . فيهاجم : النمسا ، فميل ، فالسوديت ، فتشيكوسلوفاكيا ، فالممر البولوني ، ففرنسا .

انه سيأكل اوروبا ورقة فورقة . لقد دك معالم الجمهورية الالمانية عام ١٩٣٣ متذرعاً بحماية المانيا من الخطر الشيوعي . وسيتخذ الذريعة نفسها للسيطرة على العـــالم ، وكان يعتقد انه بتحريك شبح الخطر البلشفي يضم الى صفوفه جميع العنـــاصر الرجعية الرأسمالية الفاشية في جميع البلدان ، فينسف الميثـــاق الفرنسي ــ السوفياتي ، ويعزل فرنسة .

وفي ١٨ حزيران ١٩٣٤ وقع هتلر اتفاقية بحرية مع انكلترة، في ذكرى « معركة واترلو » ليذكر البريطانيين بماض كان فيه الانكليز والالمان يحاربون فرنسا معاً .

وعام ١٩٣٦ وقع مع اليابان الميثاق المناهض للكومنترن الذي انضمت اليه ايطاليا فيما بعد ، وتحالف موسوليني مع هتلر، بعد ان اجتـــاح الاول الحبشة عام ١٩٣٥ لحمايتها من خطر « البلشفية والوحشية » ، وكانت اولى نتائج هذا الميثاق الفاشي دعم فرانكو المتمرد على الجمهورية الاسبانية ؛ ولانتزاع بلاد السوديت من تشيكوسلوفاكيا دعم هتلر موقفـه بدالاديبه

وتشامبرلن واعتمد ايضاً على بولونيا التي يحكمها الكولونيل بيك .

وبعد مضي عام ، رأينا هتلر يطلق جحافله على بولونيا نفسها قبل اجتياحه فرنسة ، وهكذا عمد هتلر الى نهج منظم ، فهو يقضي على هذا ، ويعزل ذاك ، ليقضي عليه اخيراً ، ثم يعود الى الآخر ، فيدفع الى الامام مدرعاته وفرقه على الشطرنج الاوروبي ويحقق مناهجه نقطة فنقطة .

فماذا كان يفعل عبدئذ اولئك الذين تنبأ هتلر بدمارهم وهدد باجتياح بلادهم ؟

كانوا يتراجعون. انهم لا يريدون ان ينظروا ولا ان يصغوا. كانوا يمارسون سياسة الحياد ، وكانوا يشجعون هتلر في سياسته العدوانية على اوروبا والعالم . وقدر لهذا التعامي ان يقود فرنسة الى فوهة الهاوية .

وكان كل تراجع امام المجتاح يجر على فرنسة خسارة حليف جديد، ويدعم مركز العدو، في وقت معاً، فعلى اثر اعادة تسليح رينانيا انفصلت عنا يوغوسلافيا وبولونيا ورومانيا . وحيادنا في اسبانيا بنى على الدماء الاسبانية حلفاً فاشياً بين ديكتاتوري المحور وفرانكو ، وقضت اتفاقية مونيخ على تشيكوسلوفاكيا ، وبعزلها الاتحاد السوفياتي ، هيأت الظروف الضرورية لعدوان هتلر سنة ١٩٣٩ وفتحت الابواب على مصاريعها للحرب العالمية الثانية .

وقد عبر عن تدهور البورجوازية ، تدهوراً معنوياً ، كلال ألم بها ، وشلل وخوف متصاعدان . فالبورجوازية لا تفكر الا في مصالحها الطبقية ، ولا تركز اهتمامها الا في ارباحها المهددة ، فالطبقة العاملة وحدها هي التي تهتم بمصالح البلاد ، وتسهر على سلامتها واستقلالها .

لم يكن هتلر يصب لعناته على البلشفية وحسب بل انه كان يكره الديموقراطية ويرتاع منها اي ارتياع .

غير ان شعبنا يعلم ان فرنسة اصبحت قوية ومشعة بفضل ثورتهـــا الديموقراطية الكبرى في القرن الثامن عشر ، وكان الشعب يتميز ، من وراء الخطب الهتلرية الطنانة ، الاهداف التي يحاول صاحبها ان يخفيها ، افلم يؤكد بيت ومترنيخ قديماً — وهما عدوان لفرنسا الثورية — انهما يكافحان الفوضوية في فرنسا ، وانهما يرميان الى انقاذ « الحضارة المسيحية » ؟ والحق ان بيت ومترنيخ كانا يهدفان الى اضعاف فرنسا ، وانتزاع مستعمراتها واراضيها ، والتهام اشلائها ...

هكذا كانت ايضاً لعنات هتلر وثوارت غضبه ذرائع للتدخل والفتوحات ، افلم يعلن موسوليني يوماً « ستصبح اوروبا في الغد فاشية » .

كانت الفاشية تقود ، في خط مستقيم ، الى الحرب ، وقد قال غورنغ : « الالماني العريق لايموت في فراشه ! » ثم اضاف « ايها الشعب الالماني ، انك تفتقر الى الزبدة ، هذا صحيح ، ولكن

عندك المدافع ! »

كان هتلر يتقدم بخطى سريعة ، في طريق الحرب ، وكان التساهل العجيب ، من حكومتي لندن وباريس ، يتيح له ان يمزق بنود المعاهدات جملة ، دون ان يخشى وازعاً او عقاباً ، فاعاد التدريب العسكري في المانيا ، فلم يتصد له احد ، وفي آذار ١٩٣٦ اعاد تسليح ضفة الرين اليسرى ، فلم يمنعه احد ، وهكذا لم يبق امامه الا تغيير اوضاع الحدود ، واكتساح البلاد ...

* * *

مهّد هتلر وموسوليني لمؤامرة فرانكو على الجمهورية الاسبانية الناشئة ، وحين اندلعت نيران الثورة ، سارعا الى معونة المتمردين وصرحا بأنهما لن يرضيا ابداً بتأسيس جمهورية سوفياتية في اسبانيا ، وكانا يطلقان كلمة « سوفياتية » على الحكومة الشعبية المنبثقة عن الانتخابات الاسبانية عام ١٩٣٦ . فاتاحت لهما هذه الكذبة الوقحة ان يتدخلا باسم « فلسفتهما » المناهضة للشيوعية .

وفي الخامس والعشرين من آب ١٩٣٦ ارسلتْ في مدينة « بوفالو » هذا الانذار :

« ان هتلر وموسوليني يطمحان الى السيادة على البحر المتوسط الغربي ، وهما يريدان السيطرة على مراكش الاسبانية من طريق جبل طارق ... »

ولم يكن يخفى على احد ان اركان حرب هتلر وضعوا خطة لهجوم صاعق على فرنسا . وكانوا يأملون في ان يتخذوا من اسبانيا الحليفة قاعدة لاساطيلهم البحرية والجوية . وكانوا يريدون حصار فرنسا وعزلها وتطويقها . ولكن الحكومة الفرنسية كانت تغمض عينيها ، وليون بلوم ينادي بفكرة الحياد ! . وجاء الدكتور شاخت ، رسول الفوهرر ، فاستقبله بلوم بمظاهر التكريم والابهة . واكد الناطقون باسم الحكومة الفرنسية ان المباحثات لم تتعد الامور المالية . ولكن شاخت صرح قبل ركوبه الطائرة الى برلين فقال : « اغتنمت الفرصة لانبه الحكومة الفرنسية الى مخاطر الدعاوة الشيوعية » .

منذ تموز ١٩٣٦ بدأنا نشير الى ما تتضمنه ثورة فرانكو من عناصر اعتداء فاشية تجنح الى ان تكون عالمية . وقلنا بان هذه الثورة لا تنطوي على تهديد حريات الشعب الاسباني واستقلاله وحسب ، بل على تهديد سلامة فرنسا ، والسلام العالمي .

وعمدنا كذلك الى فضح الحملات الصحفية التي كان الفاشيون الفرنسيون يقومون بها لشد ازر الاقطاعيين الاسبان . فقد رأينا في تدمير الجمهورية الاسبانية جريمة كبرى ، وكنا نطالب بالطائرات والاسلحة لاسبانيا الجمهورية ، وذلك ليتمكن العمال والفلاحون الاسبان من خنق حركة المتمردين الذين امدّهم هتلر وموسوليني بفيض من الاعتدة الحربية والاسلحة .

وكنا نعتقد ، بحق ، ان في هزيمة الجمهورية الاسبانية الفتية

هزيمتنا . وبالاتفاق التام مع (السى جى تى) فمنـــا نطالب بتطبيق برامج الجبهة الشعبية ، واحترام ميثاق عصبة الامم ، والمبادىء الاولية للحقوق الادمية .

وزعم الفاشيون الفرنسيون أننـا ندعو الى الحرب ! وهذا كذب واختلاق . لقد كنا ندعو ، في الواقع ، ونطالب ، ونلح في المطالبة بوقف العدوان الفاشي، ونحتج على هذه السياسة الحيادية المزعومة التي تساوي بين الضحايا والمعتدين ، والجمهوريين والمتمردين ، اهل الحق واهل الباطل .

لقد قمنا نفضح تلك « الغلطة الرهيبة التي دفعت البروليتارية الاسبانية دماءها ثمناً لها » .

ولا ازال اذكر ، وسأذكر دائماً، الاسئلة التي كان يطالعني بها النساء والاطفال في فلانسيا ومدريد : « هل تتخلون عنا لكي يذبحنا الفـاشيون ؟ أيرضى العمال الفرنسيون بهذا ؟ لا . ان هذا محال ! »

ولا ازال اذكر ، وسأذكر دائماً، أحاديث جنود الحرية ، تلك الاحاديث المشبعة بالانفة والرجولة ؛ كنت اصغي اليهم ، في خنادق مدريد ، وثكناتها العسكرية ، حيث جاء ثلاثة من ابناء عمي، المنخرطون ، منذ بدء الحرب الاسبانيـة ، في الفرقة الادمية . ثم قدر لمارابلوكان ، اكبرهم سناً ، ان يموت في ساحة القتال على جبهة آراغون ، مخلفاً وراءه ارملة ويتيمين . وما كان جنود الحرية هؤلاء ليشكوا او يتذمروا . بل كانوا

يشدون بقبضاتهم على بنادقهم ويقولون وعيونهم تلتمع بمثل الشرر :

انما نناضل ، نحن ، في سبيل الحرية ، في سبيل استقلالنا واستقلالكم .

ونحن اليوم نصد العدو الذي قد يهددكم غداً . انها معركتكم يا ديموقراطي العالم اجمع ، معركتكم ضد الفاشية » .

وواضح اليوم ان الشيوعيين كانوا على حق ، وما اكثر المصائب والآلام التي كان يسع الشعب الفرنسي تجنبها لو اقتدى بنا واتبعنا في طريق الهداية .

غير ان الشيوعيين لم يكونوا يكافحون سياسة بلوم بالخطب والاقوال وحسب ، بل كانوا يعملون . فقد نظم قادة الحزب الفرنسي الفرقة الامية . وثمة ثلاثة آلاف فرنسي يرقدون اليوم رقادهم الاخير ، في الارض الاسبانية .

وكانت السيدات الفرنسيات والفتيات ، بقيادة دانييل كازانوفا ، يشاركن في الحرب ، ويجمعن اللبن للاطفال الاسبان . وكانت المنظمات العمالية والديموقراطية تجمع الاموال والاغذية لتوزعها على اللاجئين المنكوبين .

صح ما توقعناه ولم ينفع تراجع حكومتي باريس ولندن الا في زيادة الجشع الفاشي ، ففي ١٤ آذار ١٩٣٨ دخل هتلر الى فيينا وضم النمسا الى المانيا ، وكنا نستطيع التنبؤ بالضحية الجديدة بعد النمسا : تشيكوسلوفاكيا ، فقد دنا اجلها بعد ان طوقتها الجيوش الهتلرية واحدقت بها من كل جانب .

وقام هتلر يطالب بضم السوديت الى المانيا ، مستخدماً تكتيكه الخاص ، بالاستفزاز المسلح ، والمؤامرات المدبرة ، وحركات العصيان المنظمة التي اتاحت له التدخل في شؤون تشيكوسلوفاكيا الداخلية ، وفي ٢٨ ايلول ١٩٣٨ انعقد مؤتمر في مونيخ، ضم هتلر وموسوليني ، من جهة وداالاديه وتشامبرلن من جهة ثانية ، فأحرز هتلر انتصاراً ساحقاً ، وتوالت انتصارات الفوهرر ، اذ استطاع ان يغير خارطة اوروبا الدفاعية ، ويعزل فرنسة ، اما الاتحاد السوفياتي ، صديقنا وحليفنا ، فقد وجد نفسه مبعداً فجأة عن مدار السياسة الاوروبية ، وقد حيل بينه وبين المبادرة الى نجدتنا ، والحكام الفرنسيون اهملوا الميثاق الفرنسي السوفياتي وشرعوا ينصحون هتلر بايجاد «مداه الحيوي» في الشرق الاوروبي ، ويدلون الجحافل النازية على طريق اوكرانيا ، ناسين ان هذه الطريق، في نظر هتلر، تمر بباريس .

وتعاقبت الحوادث وفقاً للاتجاه الذي رسمناه ، وازدادت الحالة العالمية خطراً وتفاقمت الازمة .

وكان الموقف الدولي يزداد خطراً، فنهض العمال، وانصار الديموقراطية ، يؤكدون عزمهم على الصمود للمعتدي ، فاضطرت الحكومتان الفرنسية والانكليزية للرضوخ ، وايفاد بعثات عسكرية الى موسكو ، ولكن المفاوضات استغرقت مدة طويلة ، فالطبقة الحاكمة في فرنسة وانكلترة لم ترم الا الى مسايرة الرأي العام ، دون تحقيق اهدافه ، فلم تزود البعثات

العسكرية بالسلطات اللازمة . وكان المتفاوضون الروس والغربيون لا يقررون امراً حتى تعود الحكومتان الغربيتان الى مناقشته ودراسته — وعرقلته ...

وكانت الحكومة السوفياتية تطالب بالتمهيد لتدخل الجيش الاحمر ضد الالمان ، لدى حدوث عدوان هتلري ، وما كان للاتحاد السوفياتي حدود مشتركة مع المانية ، فكان من المحتوم ان تمر جيوشه خلال بولونية ، غير ان حكومة بولونيا الرجعية لم تسمح بمرور الجيش الاحمر ؛ ومن جهة اخرى كانت الحكومتان الانكليزية والفرنسية ترفضان ادخال بلاد البلطيق في عداد المناطق التي يترتب على الاتحاد السوفياتي حماية حدوده بها . ومعنى هذا ان دالاديه وتشامبرلن تركا بلاد البلطيق فيمتناول سياسة هتلر العدوانية ، وخططه الحربية ...

كان هدف المناورة الفرنسية البريطانية واضحاً : وهو دفع الجيوش الهتلرية الى حدود الاتحاد السوفياتي ، من بولونيا وبلاد البطليق ، ودفع المانيا الى مهاجمة الاتحاد السوفياتي فيحين تلبث الحكومتان « الديموقراطيتان » مرتاحتين ، وقد كفتهما الحيلة البارعة ، شر القتال ...

وعزمت حكومة الاتحاد السوفياتي ، ازاء دسائس الحكومتين الفرنسية والانكليزية ، والروح العدوانية التي تجلت في الكولونيل « بيك » وعصابته ، وبعد ان اضحت — الحكومة السوفياتية — مهددة بحرب تجتاح اراضيها في اسوأ الظروف ،

ازاء هذه الحالة عزمت على احباط مؤامرات اعدائهـــا وقلب خططهم رأساً عـــلى عقب ، وفي ٢٣ آب تجنبت الحكومة السوفياتية الفخ المنصوب ، ووقعت مـــع المانيا ميثاق عدم اعتداء .

وبين عشية وضحاهـــا ، تصاعدت تنادي « بالخيـــانة » « والفضيحة » الاصوات نفسها التي تناست الاتحاد السوفياتي في مونيخ ، وخانت قضية السلام العالمي . اجل ، تصاعدت اصوات اولئك الذين بذلوا اقصى جهودهم لنسف العلاقـات بموسكو واحباط المفاوضات معهـا ، اولئك الذين كانت غاياتهم الخفية (والظاهرة احياناً) تتركز في ان يكتسح هتلر الاتحـاد السوفياتي ويسحقه . كان للحمقى وللجهلة والعمي وحدهم ان ينتقدوا موقف الاتحاد السوفياتي ، ولم يكن هدف الميثاق السوفياتي الالماني ليخفى على احد : اذ كسبت موسكو فترة من الزمن تستطيع خلالها استكمال تسلحها . لقد قلبت الاتفاقية الموقف رأساً على عقب ، وحطمت جبهة الدول الرأسمالية التي كانت تهدد الاتحاد السوفياتي ، وادت الى عزل الفاشية ، بأن ألبت عليهـــا حلفـاً من الدول الديموقراطية ، كان الاتحـاد السوفياتي اول الداعين اليه .

الفصل الخامس

الحرب

ونزلت الكارثة، فالحرب التي صبغت بالدماء ارجاء الحبشة ، واسبانية ، والبانية ، والصين ، امتدت الى اوروبة كلها وجعلت تجر خلفها ، في خط من الموت والخراب ، جميع امم العالم .

اندلعت الحرب العالمية الثانية اثر ازدياد ازمة الرأسمالية عمقاً ، وفقدان التوازن بين القوى الرأسمالية الاستعمارية الكبرى، وكان سببها المباشر عدوان الدول الفاشية التي قامت تحاول بسط نفوذها على العالم ، واخضاع الشعوب جميعها لنيرها ، وتدمير آخر مظاهر الديموقراطية في جميع بلدان العالم ، كما فعلت في ايطالية والمانية. وقد آزرت الرجعية العالمية المعتدين الفاشيين مؤازرة فعلية مباشرة، وذلك بمسايرة المانية ومعاملتها بسياسة التساهل ، اي سياسة المشاركة في الجريمة ...

اعلنت حكومتا لندن وباريس الحرب على المانيا ، ولكن الفرق الفرنسية المئة والعشرين ، والفرق البريطانية العشر لم

تقم بأي نشاط جدي ضد الفرق الالمانية الثلاث والعشرين التي كان هتلر يحتفظ بها على الحدود الغربية، حين كان يكتسح الشطر الاعظم من جيوشه، اراضي بولونية ، وجمدت حكومة دالاديبه الجيش في قلاع خط ماجينو وخنادقه ، وهكذا سحقت بولونيا، وسمحت هذه الخطة لهتلر بان يعود بجيوشه نحو الغرب فيما الجيوش الفرنسية قابعة في مراكزها ؛ واستكمل هتلر تسلحه واستعد لغزو بلادنا ، والواقع ان حكومة فرنسا لم تكن تفكر في حربها ضد المانيا بقدر تفكيرها بالحرب ضد الاتحاد السوفياتي .

كانت حكوماتنا البورجوازية تتجنب اغضاب هتلر ، وتداعب في اعماقها حلماً ، وترجو ان تتفاهم مع زعيم الرايخ ، لكي يشن هجوماً على الاتحاد السوفياتي ، وهي خطة مجرمة عادت على فرنسا بالهزيمة الشنعاء ...

واندلعت الحرب الفنلندية في كانون الاول ١٩٣٩ اثر استفزاز الحرس الابيض الفنلندي للروس . واطلقت الصحافة الفرنسية الرجعية شواظ حقدها على الاتحاد السوفياتي . وكتب ليون بلوم في صحيفة « الشعبي » بتاريخ ٦ كانون الاول ١٩٣٩ « لقد حجب الخطر الهتلري ، طوال سنوات عدة ، الخطر الروسي عن اعين الفرنسيين ، اما عدونا الحقيقي ، فهو الاتحاد السوفياتي » هكذا قام بطل « الحياد » البائس يطالب ، هذه المرة ، بارسال الطائرات والمدافع والذخائر الى فنلندة، وترأس جوهو لجنة « اغاثة فنلندة » .

وفي ١٢ آذار ١٩٤٠ اعلن دالاديه في المجلس ارسال نجدة عسكرية الى فنلندة ، مؤلفة من ٥٠٠٠ رجل . واقتطع « لا شامبر » وزير الطيران من الطيران الفرنسي الهزيل ١٧٥ طيارة مطاردة وارسلها الى الجرس الفنلندي الابيض . ولكن هذه « النجدة » وصلت متأخرة . اذ خرق الجيش الاحمر خط الدفاع الفنلندي وزحف على هلسنكي ، ووقعت وثيقة الهدنة بين الاتحاد السوفياتي وفنلندة .

وفي سوريا كان ويغان على رأس ١٥٠٠٠٠ جندي يوني وجهه شطر القوقاز استعداداً لغزوه ، وفي رسالة مؤرخة في ١٧ نيسان ١٩٤٠ اقترح ويغان قصف باكو بالقنابل ، وتدمير ينابيع البترول في شهر حزيران ، اي الشهر نفسه الذي كان على ويغان ان يفرض فيه هدنة « روتوند » على نفسه وعلى حكومة من المفلسين والجبناء ...

كان القادة الفرنسيون يجيدون التفكير في احراق آبار باكو البترولية ولكنهم لا يتجرأون على اطلاق رصاصة واحدة على الخط الحديدي الممتد من بال الى كارلسهي بمحاذاة نهر الرين ...

لم يكن رجال المئتي عائلة ، الخونة الذين تعاونوا مع هتلر فيما بعد ، يأملون التفاهم مع الطاغية الالماني وحسب ، بل كانوا يتاجرون معه ؛ ففي آذار ١٩٤٠ فضحت هذه الحقيقة مجلة « هاربر ماغازين » الاميركية حين اثبتت ان ثمة صناعيين يبيعون لالمانيا المواد الخام المستخدمة لصناعة القنابل والمدافع

التي يستعملها الالمان لقتل افراد الشعب الفرنسي .

وفيما كانت خطة الحرب على الجناحين (فنلندة — سوريا) تلاقي الفشل والافلاس ، كانت الحكومة الفرنسية تتابع عملها في شل ممكنات البلاد من الناحيتين الاقتصادية والصناعية ؛ والى جانب خيانات اصحاب الاعمال الانهزاميين ، ظهر عجز الرؤساء العسكريين وضيق افقهم ، اما الفئات الحاكمة ، بخاصة ، فقد انشأت ، ازاء عجزها عن محاربة هتلر ، تحارب الطبقة العاملة الفرنسية وحزبها الشيوعي .

وفي الثالث من ايلول ١٩٣٩ دُعيتُ الى الخدمة العسكرية في الفرقة الهندسية الثالثة بمدينة آراس . وكانت الملاحة مهنتي القديمة فعينت في فرقة للملاحة ، مرابطة في شوني ، على ضفاف قناة سان كانتان . وفي الاسبوع الاول ، وكنا لا نزال في « فامبو » وهي قرية صغيرة من قرى الارتوا ، زارني بعض الرفاق من مدينة آراس . وقد جاؤوا يخبرونني بنبأ الحكم على رينيه واوغست ليكور وسيبريان كينيه النائب الذي سجنه جماعة مونيخ وسلمه الفيشيون الى النازيين فاعدموه فيما بعد . وقد هرب رينيه كامفان واصبح يعرف باسم الكولونيل بودوان .

واوغست لوكور هو الذي نظم مع كالون اضراب عمال المناجم في البادي كاليه في شهري ايار وحزيران ١٩٤١ ، ذلك الاضراب المجيد حقاً ، وحارب اثنان من آل كامفان : بول

وموريس ، في صفوف الرمـاة الاحرار — وهم من الثوار — وفي صفوف الانصار الفرنسيين ، واعتقلهما الالمان واعدموهما رمياً بالرصاص بعد ان ساموهما افظع العذاب . وقد جاء بول قبل ذلك وزارني في فامبو ، وكان في السادسة عشرة ، فقلت له « تذرع بالشجاعة والثقة ، فالمستقبل لنا مهما حدث ! »

وفي عام ١٩٤٣ اطلعنا عـــلى الرسالة الاخيرة المؤثرة التي كتبها بول وهذه نهايتها :

« .. واخيراً سأغادر حياتي هذه الصغيرة ولما ابلغ الواحدة والعشرين من العمر ، سأغادرها لكي يصبح ابناء فرنسا احراراً سعداء ...

«وانا لم اخن قضية الحزب، ولذلك امضي والبسمة على شفتي والاغنية في فمي فالموت لا يخيفني .

«الوداع ياحزبي الجميل ، العظيم ، الوداع يا بلادي الفتـــانة الساحرة . تقبّلي تحية رجل يشرف على الموت .

« عاش الحزب الشيوعي ، عاشت فرنسة » .

وفي اصيل احد ايام الشتاء المربدة المدلهمة ، ذهبنـــا الى خنادق مدينة آراس القديمة وانحنينا امام الـ ١٩٣ لوحة التي تحمل اسماء الاخوين كامفان وسائر المواطنين الشهداء ، واكثرهم من عمال المناجم الشيوعيين الذين اعدمهم الالمان بالرصاص في تلك الساحة ، وكنت استعيد في ذاكرتي ، وجه الفتى بول كامفان

المنشرح الطلق ، يظهر لي امـــام هـذا الوتد ، حيث قيده الجلادون .

ولم تكن فامبو تبعد عن نوايل أكثر من ١٥ كيلومتراً ، وفي صباح احد الايام قدم والدي لتحيتي ، ولم اره بعد ذلك ، فبعد شهور عدة ، توفي ، وطوال المدة التي مرض خلالها والدي ، وحتى خلال الليلة التي سهر فيها اصحابه عليه وهو على فراش الموت ، كان رجال شرطة دالاديبه يحومون حول منزلنا الصغير . وفي يوم الدفن ، هاجم الحرس المقبرة وسط سخط الآلاف من عمال المناجم ، وجميع السكان ، فقد كان الاعداء والاصدقـاء مجمعين على احترام اسرتنا .

وكان رجـال الشرطـة يبحثون عني ففي ٢٦ ايلول ١٩٣٩ اصدرت الحكومة قراراً غير شرعي ، بحل الحزب الشيوعي ، وهذا القرار يعد الشيوعيين خارجين على القانون ، والمنظمات الشيوعية منحلة ، منذ ذلك الزمن تخطيت قراراً كنا قد اتخذناه وهو ان « الشيوعيين ينخرطون في الجيش اذا ما دعـا الداعي » واتخذت ادارة الحزب قراراً يطلب الي التحول الى النشاط السري ، وكان من واجب الحزب وادارته اتخاذ التدابير التي تتيح احباط مؤامرة الهتلريين وانصـارهم من الخونة الذين كانوا يهدفون الى اكتساح فرنسة والقضاء عليها .

كان من واجب الحزب ، في سبيل مصلحة فرنسا وشعبها ان يحافظ ، مهما كان الامر ، على منظماته الشيوعية ، التي قدر

لها ان تلعب فيما بعد دوراً اساسياً في معركة التحرر الوطني ، وكان على الحزب ان يؤمن سلامة ادارته واستمرارها ، وان يسهر على حياة قادته وموجهيه .

في الرابع من تشرين الاول تركت شوني ، لاستعادة موقعي في النضال ، على رأس المناضلين الشيوعيين الذين كانوا يعانون المطاردة والاضطهاد لانهم كانوا يفضحون الخونة من عملاء هتلر ، وعلى الرغم من حملة الافتراءات والاكاذيب التي عانيتها ، كان رفاقي في الجيش ، بمن فيهم من رؤسائي ، يكنون لي الاجلال والاحترام ، ويمحضونني ثقتهم ، وقامت على هذا ادلة كثيرة ، وقد عرفت بعدئذ ان الكولونيل قائد موقع شوني احتج وانف من التجسس عليّ ، كما اراد له السياسيون والرؤساء ...

وكانت ذريعة الحكام لحل الحزب الشيوعي ، ومنعه من ممارسة نشاطه ، رغبتنا في المحافظة على الصداقة الفرنسية السوفياتية ، وكانوا يطلبون الينا انكار الرفيق ستالين ، والتخلي عن مثلنا الشيوعي الاعلى . وقد عرف الشعب فيما بعد كم كنا على حق . فما الذي كان احاق بفرنسة وبالعالم لولا الاتحاد السوفياتي وجيوشه المظفرة وقائده العظيم ؟

وفي سبتمبر ١٩٣٩ كممت السلطات افواهنا لكي تمنعنا من الهتاف بالحقيقة . فمنعت صحيفة « الاومانيتيه » : صحيفة جوريس وكاشان ، من الصدور ، وهذا التدبير التحكمي نفسه اصاب « سيه سوار » صحيفة جان ريشار بلوخ و آراغون ، وفي

٢٧ ايلول حيّا ليون بلوم ، انتصار هتلر على حزبنا وصحافتنا ومناضلينا فكتب :

« احسّ بان اغلبية حزبنا الاشتراكي ترى في حل الحزب الشيوعي الفرنسي تدبيراً طبيعياً عادلاً » .

وعلى رغم الاضطهاد والشتائم والافتراء والمطاردة ، استمر الحزب الشيوعي الفرنسي يحيا ويناضل ، واتخذت الفئة البرلمانية الشيوعية اسم « فئة العمال والفلاحين » واخذت « الاومانيتيه » تصدر سراً .

وفي اوّل تشرين الاول ١٩٣٩ وجّه فلوريموند بونتي ، امين السر العام للفئة البرلمانية الشيوعية ، الى الرئيس هريو ، رسالة يطالب فيها باجتماع مجلسي الشيوخ والنواب لمناقشة القضايا الخارجية مناقشة علنية ، فأجاب دالاديبه بمطاردة النواب الشيوعيين واعتقالهم .

وزج النواب المعتقلون في غياهب السجون ، الى جانب اللصوص والنشالين والقتلة ، وسيطر على فرنسا عهد لا يقيم كبير وزن للحقوق والشرائع ، فاللاشرعية كانت هي القانون السائد . وهكذا خرقت ابسط مبادىء الديموقراطية وحرم ١٥٠٠٠٠٠ من الفرنسيين ممثليهم في الندوة النيابية ، وحلت اقوى النقابات واعظمها تأثيراً ، فبارك « جوهو » و « بيلان » هذا القرار ، واعتقل مئات من المناضلين ، وسجن « بيار سيمار »

وكتب له ان لا يخرج من السجن الا لكي يسلمه جلاذوه الى خشبة الاعدام الهتلرية...

ونجح بنوافرنشون في النجاة من الاعتقال ، فقضى خمس سنوات يوجه حركات المقاومة السرية...

وتضاعف عدد ثكنات الاعتقال في طول فرنسا وعرضها . وغصت بالمشبوهين و «الخطرين على امن الدولة» ونزلت ضربات الحكام بالالوف من العمال ، خوفاً من ان يعمد هؤلاء الى الخيانة المنظمة .

وكان نوابنا الذين لا يزالون احراراً ، يغتنمون الفرص جميعها ، ويدللون على شجاعتهم وبطولتهم ، ويذكون النار المقدسة في اعراق الامة . ففي ٣٠ تشرين الثاني اذن الحزب الشيوعي لفلوريمونـــد بونتي ، فاخترق نطاق رجال الشرطة ، ودخل الى المجلس النيابي ، واتخذ مجلسه ممثلا للشعب . ثم نهض وسط تصخاب المونيخيين والخونة ، يطالب باحترام القوانين الدستورية . ولكنه انتزع من مقعده ، وأخرج بالقوة ، بعد ان ناله الكثير من الضرب والشتائم . وسلمه النواب « لزملائهم » رجال الشرطة... اما الحصانة النيابية فكانت كلمة جوفاء...

وفي التاسع من كانون الثاني ١٩٤٠ حضر الى المجلس النيابي أربعة من النواب الشيوعيين العائدين من ساحات القتال ، في

اجازات رسمية . ولكنهم اخرجوا من المجلس باللطم واللكم .

واثر ذلك اقترح الفاشستي شياب مشروع قانون بفسخ نيابة الشيوعيين وتجريدهم من مراكزهم ، فتصدى له اتيان فاجون وكان قد وصل في ذلك الصباح من الجبهة ، وصار عليه ان يواجه اجماع مجلس سيطر عليه شعور الحقد والخوف ، وتحكم بجميع اعماله .

ونهض شاساني النائب الاشتراكي ، وعميل فيشي فيما بعد ، يطالب « برصاصة في صدغ كل نائب شيوعي » . اما بارتيلمي ، وهو نائب اشتراكي آخر ، فكان يطالب بالمقصلة للشيوعيين ، وعين النائب الشيوعي كاتيلا ضحية اولى « لتجربة المقصلة... » وكأن الاقدار استجابت لرغبة بارتيلمي فأعدم كاتيلا فيما بعد...

وكان تجريد النواب الشيوعيين من مراكزهم لم يصدر ، حتى ذلك العهد ، الا بمناسبة احكام عدلية جائرة ، تحرم النائب حقوقه السياسية ، اما الآن فقد استغنى الحكام عن ايـا قاعدة شرعية ، فقررت السلطة التشريعية ، على نحو تحكمي محض ، تجريد النواب الشيوعيين من مراكزهم التي نالوها في انتخابات شعبية عامة .

لقد جأر اتيان فاجون بالاحتجاج العنيف الصارخ ، فقال : بوسعكم اليوم ، يا سادة الحكومة ، ان تضطهدونا ، وان تسجنوا بعضنا ، وتطردوا آخرين من الندوة النيابية . ولكنكم اعجز

من ان تحطموا ارادة الشعب ، ارادته في الاحتفـــاظ بمكاسبه الاجتماعية ، وهي ثمرة نضـاله الطويل ، ارادته في السير المستمر على طريق التقدم الاجتماعي والاقتصـادي والسياسي ، وهذه الارادة الشعبية ستعبر عن ذاتهـا ، على الرغم من قراراتكم ، يا سادة الحكومة ، واخطهـاداتكم ، هذه الارادة ستغدو يوماً اقوى منكم...

كانت ديكتاتورية دالاديه الرجعيـة تمهد الطريق لثورة « بيتان » القوميـــة . وفي ٢٠ آذار بدأت محاكمة النواب الشيوعيين . وقد وجهت الينا تهمة خرق القوانين الصادرة في٢٦ ايلول ١٩٣٩ والقـاضية بحل المنظمات الشيوعية ، واتهمنا ايضاً باننا عملنا على نشر الشعارات الصادرة عن الاممية العمالية الثالثة ، واننـا الفنا جماعة « العمال والفلاحين الفرنسيين » واصدرنا نداء اول تشرين الاول ١٩٣٩ الداعي الى السلم والتحرر بقيـــادة الاتحاد السوفيـاتي . وكان « القضاة » قد غيّروا من نصوص النداء وعدلوا فيها وزوروا بعض الفقرات...

وطلب رفاقنا الماثلون امام المحكمة العسكرية الاستماع الى شهادة دالاديه وبونيه ، فامتنع كلاهما عن الشهـادة . هكذا كان النواب الشيوعيون يناضلون خطوة فخطوة، في عزم وعناد، ووضع الكثيرون في زنزانات منفردة لتختنق اصواتهم ، ولكن محاميهم مارسيل ويلار ردد في ساحة المحكمة اقوال بلانكي :

« انا ماثل امامكم ايها القضاة. ولكنني لا اخاطبكم وحدكم.

انني اوجه كلامي الى شعب فرنسا بأسره ، وهو اعلى محكمة للعدل ، اعرفها ، وانها المحكمة الوحيدة التي لا تقبل احكامها مراجعة ولا نقضاً...

وانهى رفيقنا ويلار خطابه قائلاً :

ايها القضاة . لا شأن لنا الا باولئك الذين زرعوا الريح ، وسخروكم لكي تجتنبوهم العاصفة ، اما العاصفة ، فسيلاقونها ...

ومع ذلك ارتدت المحاكمة طابعاً سرياً ، وحفظ المعتقلون في الزنزانات ، وافلح النواب الشيوعيون ، اثناء جلسات المحاكمات السرية ، في جلاء الحقيقة ، ودحض أكاذيب الاتهام وافتراءاته .

ودلل شهود الدفاع ، بتضامنهم مع المتهمين ، على شجاعة فائقة ، وجاء دور مارسيل كاشان ، بعد الغاء مركزه في مجلس الشيوخ ليؤدي شهادة صادقة في رفاقه المعتقلين ، وجاء صديقنا المخلص ، والكاتب الكبير جان ريشار بلوخ ، والاستاذ هنري والون ، فعبروا ، في ساحة المحكمة عن اعجابهم بالشيوعيين ، اما بول لانجفان ، وهو من امجاد العلم الفرنسي ، فقد جاهر امام القضاة بانه يؤيد المتهمين ويتبنى عقيدتهم وانه يؤمن مثلهم بامكان تطوير العالم بل بضرورة هذا التطوير .

واعلن فرانسوا بيو في تصريحه الاخير امام المحكمة ، بانه يحمل ورفاقه بصراحة ، تبعة ما يؤمنون به ، وما ينشطون في

سبيله ويجاهدون ، سواء بالقول او بالكتابة او بالعمل .

« نحن نحب فرنسة ، وما يؤلف فرنسة ويبني كيانها اعني شعبها... نحن نحب شعب فرنسا ونرغب في تحريره من اولئك الذين يريدون ان يقودوه نحو الخراب والقبور... نحن اميون، ولذلك نعتبر كل انتصار تحرزه الطبقة العاملة ، في اي بلاد كانت، انتصاراً لنا... نحن ننظر الى بناء الاشتراكية في الاتحـــاد السوفياتي على انها المرحلة الاولى من مراحل الثورة العالمية التي ستؤدي الى تحرير الشعوب من الاضطهـــاد والحروب ، ونحن انما نعمل لتحرير بلادنا ، عاش الحزب الفرنسي ! عاش الاتحـاد السوفياتي ! عاشت فرنسة قوية سعيدة حرة ! »

وماذا كان حكم القضاة ؟ لقد حكموا بالسجن خمس سنوات، وبغرامة قيمتهـا خمسة آلاف فرنك ، وبفقدان جميع الحقوق المدنية والسياسية على كل من الـ ٢٦ نائباً شيوعياً الذين كانوا قيد الاعتقال ، وعلى سائر النواب الذين كانوا فارين .

وفيما كانت الحكومة الفرنسية تحقق انتصاراتها الساحقة على النواب الشيوعيين ، فتنكل بهم كما يحلو لها ، خلا الجو للخونة النازيين والجواسيس الهتلريين ، فجعلوا يمارسون نشاطهم احراراً من كل قيد .

وبعد اسابيع قلائل انطلقت الجحافل الهتلرية في هجومها على فرنسة . لقد عمل الطـــابور الخامس وسائر رجال هتلر المناهضين للشيوعية فأحسنوا العمل . وكانت فرنسة غنيمة باردة للنازيين ، بعد ان خضعت وانحلت ودب فيها الشقاق والخور .

بدأ الهجوم الالماني في العاشر من تموز ١٩٤٠ في بلجيكة واللوكسمبورج ، وكان الجيش الفرنسي بالاضافة الى المعونة البريطانية والبلجيكية والهولندية ، اكبر عدداً من الجيش الالماني ، ولكنه كان يفتقر الى الطيارات ، اما مدرعاته التي كانت تعدل او تفوق المدرعات الالمانية بالعدد والنوع ، فلم تكن موزعة في الجبهة ، على شكل وحدات مدرعة كبرى .

واثر اشتداد هجمات الطيارات الالمانية والدبابات تحطمت خطوطنا في « سيدان » وتدفقت جيوش العدو نحو السوم ثم انكفأت نحو الشمال ، مطوقة افضل فرقنا التي غامرت بنفسها في بلجيكة وعادت الآن تنسحب شطر دانكرك مع الجيوش البريطانية ، وافلح جزء من الجيوش الحليفة بركوب البحر ، اما الاعتدة ففقدت كلها .

بعد هذه الكارثة أقال رينو الجنرال غاملان واستدعى ويغان لقيادة الجيوش الفرنسية . فجاء القائد الاعلى الجديد واستكمل الهزيمة ، فكيف يستطيع الرجل الذي فكر طويلاً بالزحف على باكو ، ان يوقف الزحف الالماني على باريس ؟

ان الروح الرجعية التي تحرك هذا الجنرال ، المشبع بجميع اوهام العرق ، والذي يكره الشعب ويحقد عليه ، ويقاوم الحركة العمالية العالمية (فقد حارب الجيش الاحمر في بولونيا عهد معركة ١٩٢٠) هذه الروح المتعصبة الرجعية ، ظهرت جلية اثناء الاسابيع العصيبة التي شهدت انطلاق المدرعات الالمانية شطر

السوم والبرانس .

وكان بول رينو قد اصطفى ديغول اميناً عسكرياً لسر الدولة ، واشرك ، من قبل ، بيتان في حكومته ، وعين الجنرال دانتز حاكماً لباريس ، فسارع هذا الجنرال النازي الى اعلان باريس مدينة مفتوحة ، وفيما كانت جيوشنا تتراجع ، وتتراجع ، كان وزراؤنا وقوادنا لا يفكرون الا في اضطهاد العمال ، وزيادة غضبة الشعب بتدابير جائرة طاغية . وفيما كان تهديد الالمان لباريس يتعاظم ساعة فساعة، حملت جبهتنا المركزية الى الحكومة ، يوم السادس من حزيران ، المقترحات التالية :

يرى الحزب الشيوعي ان من الخيانة تسليم باريس للمجتاحين النازيين ، ويرى ان اول الواجبات الوطنية تنظيم الدفاع عن العاصمة ولهذا يجب :

١) تطوير مظهر الحرب ، وتبديل طبيعتها ، وجعلها حرباً وطنية قومية في سبيل الاستقلال والحرية .

٢) اطلاق سراح النواب الشيوعيين والمناضلين وكذلك عشرات الآلاف من العمال المعتقلين بلا سبب .

٣) المبادرة الى اعتقال عملاء العدو ، الذين تزخر بهم مجالس الوزارة والبرلمان والقيادة العسكرية ، وبعد اعتقالهم يحاكمون ويعاقبون باقسى العقوبات ليكونوا عبرة لسواهم .

٤) ان هذه التدابير الاولية ستلهب ولا شك الحماسة

الشعبية وتتيح نهضة جماهيرية ثورية ، على الحكومة ان تعمل لها بلا ابطاء .

٥) يجب تسليح الشعب ، وتحصين باريس حتى تصبح مدينة منيعة تعز على دبابات العدو وطياراته .

اقترحنا على الحكومة تسليح الشعب ، ومناجزة الاعداء حتى آخر رمق ، فأجابت بالاستسلام .

اراد الشيوعيون ان يستقبل الشعب الاعداء الهتلريين في العاصمة ، بطلقات البنادق ، ولكن ويغان كان يرى غير هذا الرأي ، فاسمعه يصرّح : « اذا دخل الالمان باريس ، فالحكومة ترى من واجبها المعنوي ان تستقبلهم فتحسن استقبالهم » .

وفي الثاني من حزيران اجتمع الوزراء في « كانجاي » بتورانيا . وكان يحرك ويغان — كما يقول برتيناكس في كتابه «حفارو القبور» حقده العارم على احزاب اليسار والاشتراكيين ، والبناة الاحرار ، والديموقراطية ، والمؤسسات البرلمانية ، هذا الحقد الذي تحول الى جنون ، بعد اقالته من مركزه في كانون الثاني ١٩٣٥ وظل يصاحبه مدى حياته ، ودفعه في ذلك الاجتماع الى المعارضة بانشاء موقع للحكومة في جبال بريتانيا ، وان يطالب بالاستسلام دون قيد ولا شرط ، وايده رينو وبيتان ، وفي اليوم التالي ، في مدينة تور ، لجأ الجنرال بسيم الى الكذب والتهويش :

« فقد وصل الى اجتماع مجلس الوزراء متأخراً ، فوجه كلامه الى رئيس الجمهورية واعلنه ان موريس توريز احتل قصر الاليزيه — مركز رئاسة الجمهورية في باريس — وتسلم الاحكام في فرنسة ، فنهض ماندل وخاطب مدير البوليس بالهاتف فاتضح كذب ويغان ، فثار هذا وخاطب مندل بقوله : ماذا ؟ او ترتاب في قولي ؟

كان خلفاء تيبرس وتروشو يحركون شبح « الكومون » المرعب ويجهدون بذلك ليقنعوا زملاءهم المترددين بانجاز سياسة تعاون مع هتلر .

وادت الخطة الشنيعة التي دبرها بيتان وويغان ولافال الى هزيمة روتوند واتفاقيتها المخزية (٢٥ حزيران) فسلم هؤلاء ثلثي اراضي فرنسة الى المانيا ، وجردوا قوانا الحربية من الاسلحة ما عدا القوات اللازمة لحفظ الامن ... وكان على اولي الامر تسليم جميع الاعتدة والاسلحة الموجودة في فرنسة غير المحتلة ، وكان عليهم وضع الاسطول الفرنسي قيد المراقبة الالمانية ، ودفع ٥٥٠ مليون فرنك يومياً لنفقات جيوش الاحتلال . وكان مليون ونصف المليون من الاسرى الفرنسيين في ايدي الالمان .

والعصبة التي سلمت فرنسا لهتلر وجدت في الهزيمة ظرفاً مناسباً منشوداً لتركيز دعائم الفاشية في البلاد ، وكان انتصار الرجعية ، تدعمه حراب الجيوش الاجنبية ، وتباركه القيود التي

ترزح فيهـــا الامة « مناسبة إلهية » امتدحها شارل موّراس « صاحب نظرية القومية الكاملة... »

وفي فيشي ، يوم العـــاشر من تموز ، وبعيداً عن الجماهير الشعبية ، كان لافال يكتب آخر انفاس الجمهورية ، وكان المجلس النيابي المسترق يوقع وثيقة اعدامه بيده ، وكان ذلك آخر عمل لهؤلاء النواب اذ سمحوا بمنح المراسيم التشريعية للحكومة، فتخلوا شيئاً فشيئاً عن سلطاتهم في المراقبة والتشريع، ورضوا بحرمان النواب الشيوعيين مراكزهم النيابية دون مبرر .

هكذا تلاشت الجمهورية الثالثة من دون مجد ؛ وفي الماضي قاد خطاها الاولى ماريشال منهزم ، واليوم يحملها ماريشال منهزم الى مطاوي التراب... من ماكماهون الى بيتان...

في ذلك النهـــار نفسه الذي شهد سياسيي البورجوازية يستعيدون تقاليد « فرساي » ، ويركعون على اوحال الهزيمة ، ويسجدون للحكم الفردي الطاغي ، كنا نحن خلفـــاء ابطال « الكومونا » نعلن ايماننـا الراسخ بمستقبل فرنسا ، وبانتصار الديموقراطية .

فقد اصدرت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي بياناً موقعـاً باسمي وباسم ديكاو ، نشرته صحيفة الاومانيتيه السرية جاء فيه :

«لقد عرفت فرنسة الهزيمة والاحتلال والذل، ولكن فرنسة

التي لا تزال دامية الجراح تريد ان تعيش حرة مستقلة ، فشعب عظيم مثل شعبنا لن يغدو ابداً شعباً من الارقاء ، ولن تصبح فرنسة قط ضرباً من البلدان المستعمرة ، ففرنسة ذات التاريخ المجيـــد لن تجثو امـام عصبة من الخدم المستعدين لجميع الاعمال الحقيرة ؛ وليس القادة المدحورون ، ولا اصحـاب الاعمال ، ولا السياسيون المفلسون ، هم الذين يستطيعون انهاض فرنسة ، ففي الشعب وحده تكمن كبريات الآمال في التحرر الوطني الاجتماعي ، وحول الطبقة العـاملة الناشطة الكريمة ، الممتلئة بالثقة والبسالة ، يمكن ان تتألف جبهة النهضة والحرية والاستقلال .

اما الجنرال ديغول ، فقد اعلن من اذاعة لندن ، في العاشر من حزيران : انا ، الجنرال ديغول ، الموجود الآن في لندن ، ادعـو الضبـــاط الفرنسيين ، والجنود النـازلين في الاراضي البريطانية ، اليوم او في المستقبل ، مع اسلحتهم ، او بدون اسلحة ، وادعو كذلك المهندسين ، والعمال المختصين بصناعات التسلح ، ادعوهم جميعاً الى الاتصال بي ...

اسلحة ... تسلح ... صناعات التسلح ... انا ديغول ... هكذا كانت ترتسم قضية فرنسا وشعبهـا في ذهن هـذا الجنرال الاحمـق ... وفيما كان كل شيء عـــلى ارض الوطن — المؤسسات والاحزاب — يغرق في الاضطراب ، او ينزلق الى الخيانة والنذالة ، كان حزبنا الشيوعي يسير وحده في الطريق

التي تؤدي بالبلاد الى الحرية والنصر ...

وكان القيشيون يتحدثون ، في نفاق ما بعده نفاق ، عن « الثورة القومية » وكانوا ينشرون صيغهم الخداعة : « مراقبة الاقتصـــاد على قاعدة غير رأسمالية ، ومكافحة التروستات ، والعودة الى الارض ، والغاء صراع الطبقـات ، وجعل الدولة فوق الطبقات ...الخ ... الخ ... » ولكن من وراء واجهة « الانسجام الاجتماعي » (الذي كان ينادي به بيتان) كانت جماهير العمال تكتشف يوماً بعد يوم حقيقة الاضطهـاد القاسي ، والعبودية السوداء .

وكانت اكذوبة « الثورة القومية » هذه، تتيح للالمان، في الدرجة الاولى ، نهب فرنسا نهباً منظماً ، فكانوا يستولون على كل شيء : على القمح والنبيذ والمواد الغذائية والاولية والحيوان والمنتوجات المصنوعة ، والعُدد الصناعية والسيارات والمحركات والمركبات ...

وهكذا لم تكن اللارأسمالية القيشية الا تهويشاً وخداعـــاً شأنها في ذلك شأن اللارأسمالية الفاشية .. ومن البدهي انه ليس ثمة اشتراكية حيث يحتفظ الاقتصاد بخط الانتاج الرأسمالي ، وغايته انتاج راس المـال ، والبحث عن الكسب الرأسمالي ، ويترتب عليه حتما استثمار الانسان للانسان ، فالقيشيون كانوا يرون ضرورة الكسب الراسمالي ، وهـذا ما اعلنه بيتان في خطابه بسان اتيان ، اما رجال المئتي عائلة ، واصحـــاب

التروستات فقد جهدوا لوضع الاقتصاد الفرنسي في خدمة المانيا .

وكان الفيشيون يتحدثون عن العودة الى الارض ، فكانوا يستجيبون لرغبات الاستعمار الالماني الذي كان يريد تأسيس نظامه الرأسمالي في طول اوروبة وعرضها ، بحكر الصناعة وارغام البلاد الاخرى على الاكتفاء بالانتاج الزراعي . والواقع ان حاجة فرنسة ، في عهودها الطبيعية، لم تكن الايدي العاملة، بل الآلات والاسمدة ، والبذور المؤصلة والقروض، والطرقات المعبدة الصالحة ، والكهرباء ، والمياه الخ...

وكانت فرنسة تنتج قبل الحرب ، من القمح ، اكثر من حاجتها ، وكانت اعظم بلد منتج للخمور في العالم .

وازدادت الحالة في الارياف سوءاً على سوء ، وكان الالمان يصادرون المحصولات والماشية والجياد . وبلغ عدد الفلاحين المعتقلين ٨٠٠ ٠٠٠ فلاح .

لقد اعلن بيتان « الغاء صراع الطبقات » ولكن عهده ، يعني عهد المئتي عائلة ، كان التعبير عن معركة عنيفة يخوضها المحظوظون الآسرون ، ضد الشعب الفرنسي ، وكان الفيشيون قد شلوا ما تبقى من الحريات الفردية والنقابية والبلدية والقوا ، بقيادة الجستابو ، جيشاً من رجال الشرطة الجواسيس ، وبثوا آذانهم في كل مكان... وعينت العناصر المشهورة برجعيتها في

جميع مراكز الادارة والشرطة في الجيش والبحرية وسائر الملاكات...

وكان العمال والوطنيون يلاحقون ويُسجنون ويعذّبون ويشنَقون او يقادون الى خشبة الاعدام .

وكان الفيشيون يدعون الى « الثورة القومية » ويقدمونها الى الناس على انها « تجديد معنوي وروحي ، وبعث مناقبي » والواقع ان هذا التجديد كان بمثابة عودة الى الوراء ، نحو الماضي الوحشي السحيق ، فلم تكن نظرية « الدين الضروري لخدمة الشعب » باكثر شيوعاً منها في عهد فيشي ، فعادت الكنيسة مؤسسة حكومية ، وكان بيتان ووزراؤه يحضرون الحفلات الدينية ، تحف بهم مظاهر الابهة والعظمة ، وأعلن في طول البلاد وعرضها ان الهزيمة التي حلت بفرنسا انما جاءت جزاء وفاقاً خطايا الشعب ، وكتبت الصحيفة الكاثوليكية « الجمهورية » تقول : ان هزيمة فرنسة نعمة من الله ، وذلك لانها تتيح للماريشال ان يقوم بالمعجزة ، ويرقى بمعنويات الامة ، وينقذ الروح الفرنسية » .

واذا كانت جماهير الفرنسيين الكاثوليكيين ظلت على وفائها لفرنسة فان كبار رجال الكنيسة لم يحرموا الخائن بيتان معونتهم ، بل أيدوه في سياسة الخضوع لهتلر ، وقد هتف الكاردينال جرلييه يوماً : « بيتان هو فرنسة ، وفرنسة هي بيتان ! »

وأعلنت الحرب على المدرسة اللادينيـة ، والتعليم اللاديني ، والمعلمين اللادينيين، وعدلت المناهج المدرسية وفقاً لروح رجعية متعصبة ضيقة ، معادية لفرنسة . و « طهّرت » كتب التاريخ مما يمكن ان يذكي الروح الوطنيـة ، فشوهت الثورة الفرنسية العظمى ، واصبحت انتصارات بوفين وفالمي على النمسة والمانية لا تعد امجاداً قومية !

هكذا كانت تلك « الثورة القومية » التي قام حزبنا يدعو الشعب الى مكافحتها منذ ايامها الاولى .

وجاء في صحيفة الدايلي تلغراف ، بعددها الصـادر في ٢٠ كانون الاول ١٩٤٠ :

« ان الحزب الوحيد الموجود في فرنسة هو الحزب الشيوعي، وان كان حزباً سرياً ، وقد اوقف في الشهر الماضي اكثر من الف مناضل من اعضـائه ، وهذا الحزب يقوم بنشاط عجيب مناهض للالمان يرتكز على اعمال التخريب ، ويعبيء القوى ، ويوزع المنشورات التي تخاطب الحسّ الوطني الفرنسي ، وتلهب عواطف الشعب » .

وفي الحادي عشر من تشرين الثاني ١٩٤٠ تجمع طلاب باريس وانطلقوا نحو تمثـال الجندي المجهول ليحتفلوا بذكرى هذا الجندي ويضعوا على تمثاله أكاليل الازهار والتظاهر ضد الجيش المحتـل ، فأطلق الهتلريون الرصاص ، واسقطوا بعض القتلى والجرحى من الطلاب، وبعد ايام علمت فرنسا ان بيتان ولافال

تخليا عن الالزاس واللورين لهتلر ، وان الالمان يخلون القرى ، في هاتين المنطقتين ، من سكانها الاصليين ، دون ان يسمحوا لهم بحمل شيء عدا اوراقهم الشخصية... وكان حزبنا هو الهيئة الوحيدة التي رفعت صوتها بالاحتجاج المدوي، واذاعت نداءات صاخبة ونشرتها في جميع ارجاء البلاد ...

وفي السابع والعشرين من نوار ١٩٤١ اعلن عمال المناجم في الشمال والبادي كاليه اول اضراب كبير ضد المحتل ، على الرغم من اعمال القمع الوحشية القاسية .

وفي الخامس عشر من نوار اعلنت لجنتنا المركزية التصريح التالي : « ان الحزب الشيوعي الفرنسي ، الذي يضع نصب عينيه تحقيق وحدة البلاد ، ونيل استقلال الوطن ، ويضع ايضاً مصلحة البلاد فوق كل مصلحة ، يصرّح رسمياً بانه مستعد ، في سبيل خلق جبهة واسعة للتحرر الوطني ، ان يدعم كل حكومة فرنسية ، وكل منظمة ، وكذلك جميع الرجال الذين تتجه جهودهم شطر النضال الصحيح ضد الاضطهاد الذي تعانيه فرنسة، وضد الخونة الذين يعملون في خدمة المحتل .

ومنذ اواخر ١٩٤٠ كان الشيوعيون قد الفوا نواة لمنظمة عسكرية متلائمة مع شروط النضال السري والارهاب الفاشي .

وجاء الاعتداء الهتلري على الاتحاد السوفياتي فاذكى روح النضال في صفوف المواطنين الفرنسيين، وبخاصة ، منظمة النضال المسلح ؛ فقد ادرك المواطنون ان تناسباً جديداً بين القوى قد

وجد ، وان انصار حرية الشعوب واستقلالها واثقون بالنصر ، وحتى ذلك التاريخ كان كثير من الفرنسيين يحتفظون بتشاؤمهم وشكهم في تحرر البلاد ولكن منذ ٢٢ حزيران ١٩٤١ كان المواطنون يقولون : لم نبق وحـــدنا . فنحن نستطيع التحرر والى جانبنا حليف كالاتحاد السوفياتي » .

ونشطت المعركة ضد المحتل ، وغدت اكثر قوة وتنظيماً ، وتضاعفت حوادث التخريب ، والاغتيال ، والحوادث المسلحة ، واثر خطـاب ستالين ، في الثـالث من تموز ١٩٤١ ، امتلأت جدران مدينة سان اتيان بالكتابات : « عاش الجيش الاحمر !» « عاشت روسيا السوفياتية » وفي الرابع من تموز ، في باريس ، سارت المواكب والمظاهرات ، وفي جميع ارجـاء فرنسا ، هوجمت الدوريات الالمـانية ، ونسفت مخازن الذخيرة ، وفي البادي كاليه تألفت شراذم الرماة الاحرار ، وجماعات الانصار بقيادة البطلين شارل ديبارج وجوليان هابيو اللذين اعدمهما الالمان بالرصاص فيما بعد .

واخذت هذه القوات تهاجم الالمان بالقنابل اليدوية ، في هينين لياتار ، واوشيل ، وهارن ، وتخرج القطـــارات عن خطوطها ، وتنسف المصانع ، امـا في باريس فالرماة الاحرار الشيوعيون ، جعلوا يهاجمون الالمان حتى في ساحة الكونكورد.

وضاعفت حركات القمع القيشية والهتلرية من قوتها ، وغطى الفستابو الجدران بالبيـــانات الثائرة المهددة . واعلنت بمساعدة

بعض الخونة « الفرنسيين » قوائم من اسمـــاء الرهائن . وكان بيشو ، وزير الداخلية في حكومة بيتـــان ، يحكم بوساطة جواسيسه ورجال شرطته ، وينشيء المحاكم الخاصة التي تلتئم وفقاً لاهواء الالمان ، وتحاكم المتهمين دون ان تتيح لهم فرصة الدفاع عن انفسهم ، وهوت المقصلة عـــلى عنق جان كاتيلا ، النائب الشيوعي ، واحد المحاربين القدماء في ڤردان ، واثارتني هذه الجريمة حين علمت بنبأها ، فما كنت استطيع ان اصرف تفكيري عن هذا المشهد المفزع ، فكنت اتصور رأس رفيقي ؛ وصديقي ، هذا الرأس ذا القسمات الفتية العازمة ، تقطعه شفرة المقصلة ...

وفي ربيع عام ١٩٤١ اعتقل غابرييل بيرى ، الرجل الذي ناضلتُ معه عشرين عاماً في صفوف الشبيبة الشيوعية ، والذي فضح سياسة دالاديه ـ بونيه بشجاعة مـا بعدها شجاعة ، وفي الخامس عشر من كانون الاول اعدمه الالمان بالرصاص عـلى جبل ڤاليريان ، وقبل موته بساعات قلائل كتب :

« عدت الى ضميري ، آخر مرة ، اتفحصـــه وابلوه ، وكان عملي ايجابياً جلياً ، انني على يقين مما وجدت . ولو قدر لي ان استعيد حياتي ، لسرت في طريقي التي سلكتها من قبل ، لقد قضيت هزيعاً طويلاً من ليلتي الاخيرة افكر فيما قاله ـ بحق ـ رفيقي وصديقي فايان كوتيرييه ، وهـو « ان الشيوعيـة شباب العالم » وانها تهيء الغد المنشد... بعد قليل سأهييء لرفاقي الغد

المنشد ... »

وبعد اشهر اعدم الالمان بيار سيمار ، زعيم عمال السكك الحديدية وامين السر العام للحزب الشيوعي سابقاً ، وقد اوقف منذ اوائل الحرب ، والسطور التي كتبها قبيل موته تبين الى اي الذرى تسمو شجاعة المناضلين الشيوعيين ، والى اي مدى يبلغ وعيهم :

« ان افكاري الاخيرة معكم يارفاق النضال ، انها مع اعضاء حزبنا العظيم ، ومع جميع المناضلين الفرنسيين ، ومع المحاربين في صفوف الجيش الاحمر السوفياتي ، وقائده ستالين العظيم ، وداعاً يا اصدقائي الاعزاء ، ان ساعة موتي تقترب ، لكنني اعلم ان النازيين الذين سيعدمونني قضي عليهم بالهزيمة ، وان فرنسة ستناضل نضالها العظيم . عاش الاتحاد السوفياتي وحلفاؤه ! عاشت فرنسا ! »

واذكت بسالة ابطالنا ، وعظائم الانصار ، ارادة الجماهير الشعبية ودفعتها الى النضال ؛ وفي ٢٢ حزيران ١٩٤١ ، وهو يوم الذكرى السنوية لعدوان الالمان على الاتحاد السوفياتي ، فر تسعة عشر شيوعياً وعلى رأسهم جورج كونيو من معتقل رويالبو ، بحفرهم نفقاً تحت الجدران ، وكان اخي لويس بين الفارين ، ولكنه اعتقل وسلم الى الهتلريين فأعدموه رمياً بالرصاص .

وهوت قبضة الالمان على المناضلين من عمال ومثقفين ،

فكانت تعدمهم بالمئات ، ولا بد ان اذكر من بينهم بوليتزر وسالومون ، وبيتار وفيدلمان... الخ...

وألهبت ذكرى الشهداء ، مناضلين آخرين، فأقام الرماة الاحرار حواجزهم في طرقات الالمان ، وفتكوا بالكثيرين منهم ، وهاجموا القوافل، والقوا قنابل يدوية كثيرة على ثكنات الاعداء ، وفي ١٩ نوفمبر ١٩٤٢ تحول الجيش الاحمر الى الهجوم امام ستالينغراد ، وفقاً للخطط التي وضعها ستالين بنفسه ، وكان ذلك الهجوم نقطة تحول خطير حاسم في مجرى الحرب . وفيما كان الجنود السوفياتيون يثبتون اقدامهم في ساحة القتال ويدافعون عن المدينة بيتاً فبيتاً ، وطبقة فطبقة، وغرفة فغرفة ، وسط ركام الخرائب ، كانت الفرق الروسية تعمل شمالي ستالينغراد وجنوبيها لخرق خطوط الاعداء .

وانطبقت هذه الفرق على جيش هتلري يبلغ عدد رجاله ٣٣٠٠٠٠ رجل ، فسحقته سحقاً وأسر ٩٠٠٠ رجل منهم ، ومن شواطيء الفولغا بدأ ذلك الزحف السوفياتي العنيد، شطر الغرب، الذي قدر له ان يقود المنتصرين الى ابواب برلين، بعد معارك ضارية قاسية. وساعد صمود الجيش الاحمر والتضحيات الكبرى التي بذلتها الشعوب السوفياتية على ايجاد فرصة هيأت للولايات المتحدة وانكلترا وقتاً للتأهب، وفي الثامن من نوفمبر ١٩٤٢ نزلت قوات الحلفاء الى افريقيا الشمالية ، ولكن نزولها لم يؤلف الجبهة الثانية التي كانت تنتظرها وتلح في طلبها الشعوب الخاضعة للنير الهتلري...

والمناضلون على جبهات الشرق ، الذي قضي عليهم ان ينتظروا ثمانية عشر شهراً وان يتحملوا وحدهم اعباء الحرب...

واثر معركة ستالينغراد ، رأى شطر من البورجوازية الفرنسية ان القضية الهتلرية خسرت ، فالقى الخارطة الالمانية على الارض واستبدل بها الخارطة الاميركية ، ووصل الى افريقية فيشيون خونة واحتلوا مراكز رسمية !

كان نزول الحلفاء الى الشواطيء الافريقية « يساعد — كما صرح ستالين — على انشاء قاعدة تنظيم جيش فرنسا ضد هتلر.» واصبح ممكناً توحيد جميع القوى الفرنسية وتنظيمها لاستعجال الهزيمة الهتلرية ، على ان يستبعد الانهزاميون والمتعاونون مع العدو . واسهم في الحملات والمعارك المؤدية الى النصر، المناضلون في صفوف الحزب الشيوعي الجزائري ، والنواب الشيوعيون السبعة والعشرون الذين اطلقهم الجنرال جيرو في ٥ شباط ١٩٤٣ . والمناضلون الشيوعيون الاربعمئة الذين افلتوا من معتقلات افريقيا .

وبعد يومين من اغراق الاسطول الفرنسي في طولون (٢٥ تشرين الثاني ١٩٤٢) اجتمع مندوب عن لجنتنا المركزية ، ومندوب عن الجنرال ديغول ، واتفقا على منهج للعمل المشترك ، مؤسس على تفاهم وثيق بين الحزب الشيوعي الفرنسي والقوات الفرنسية الحرة ، لاعداد الثورة الوطنية .

وفي كانون الثاني ١٩٤٣ وصل فرنان غرانييه مندوب

البعثة المركزية للحزب الشيوعي الى لندن واتصل باللجنة الفرنسية للتحرر الوطني. وفي شهر آذار تألف في فرنسا المجلس الوطني للمقاومة وفيه ممثلون عن الاحزاب السابقة ، والسي جي تي ، والنقابات المسيحية ، وسائر حركات المقاومة ومنظماتها .

وكانت اهدافنا في اللجنة الفرنسية للتحرر الوطني تتلخص في خمسة مطالب اعلنها جاك ديكلو ، في الثالث من كانون الاول ١٩٤٣ ، في صحيفة الانسانية الصادرة سراً :

« انشاء جيش قوي ، وتسليح المواطنين ، ومعاقبة الخونة ، وتطهير الدوائر العامة ، والمناداة بسياسة ديموقراطية اجتماعية ، من شأنها ان تذكي الحماسة لمعركة التحرر ، وسياسة اخاء حقيقي بين فرنسة وبلاد ما وراء البحار (المستعمرات) . وان تمارس فرنسة دوراً اعظم نشاطاً في الامم المتحـــدة لتطوير جهودنا الحربية» وفي نيسان ١٩٤٤ انضم بيو غرانييه الى اللجنة الفرنسية للتحرر الوطني استجابة لرغبات الجماهير الشعبية .

وفي نوار ١٩٤٣ سافرت بوصفي عضواً في مكتب الاممية الشيوعية ، الى موسكو ، واشتركت في المناقشات التي ادت الى حل مجلس الاممية . وخلال ربع قرن ، حركت الاممية الشيوعية والهمت ، وقادت معركة المستثمَرين ضد المستثمِرين، في جميع بلاد الدنيا ، وحافظت هذه الاممية على تعاليم ماركس وحمتها من المزورين اتباع الاشتراكية الديموقراطية ، وجمعت

العمال الثوريين في احزاب عمالية سليمة . ونظراً الى المرحلة التاريخية الجديدة ، ونظراً لتنوع الحركة العمالية في كل بلد وتفاوت درجاتها وقواها ، رأى مكتب الاممية ان شكل التنظيم الاممي اصبح لا يفي بمتطلبات النضال ، وكنا نستوحي ماركس وانكلز فيما نعمله، فقد عمدا الى حل «الجامعة الشيوعية» (١٨٥٢) ثم حل الاممية الاولى بعد ان ادت دورها التاريخي والقت الدعائم لانشاء الاحزاب العمالية (١٨٧٦) .

وقررنا ان نقترح على الاحزاب الشيوعية المنضمة الى مجلس الاممية حل الاممية الشيوعية بوصفها مركزاً لادارة الحركة العمالية العالمية فوافقت هذه الاحزاب على اقتراحنا بالاجماع .

وفيما كان الجيش الاحمر يتقدم ، كان النضال ضد الهتلريين يشتد ، ففي عام ١٩٤٣ قام الانصار بالفي هجمة حربية على الخطوط الحديدية، وقام الطيران الحليف بحتمعاً بالف وستمئة ، ورغم هذا كان قادة الحلفاء يرفضون امداد مناضلينا بالاسلحة ، وفي ايلول ١٩٤٣ قام الانصار الكوريسيكيون وحرروا الجزيرة وطردوا الالمان والايطاليين منها .

وفي عام ١٩٤٤ انضمت قوات الانصار والرماة الاحرار الى سائر القوات المسلحة وكان قائد الجبهة الداخلية رفيقنا الجنرال جوانفيل ، واصبحت المعركة اعظم اتساعاً واكثر جدوى . ومهدت ، على نحو مفيد حقاً، لنزول قوات الحلفاء . وبعد حوادث ٦ حزيران شهدنا ثورة حقيقية جماهيرية في مقاطعات

بريتانيا والالب والبرانس واجورا . وثمة دوائر حررت نفسها بنفسها .

كان ذلك هو البعث القومي حقاً . وعند اقتراب جيوش الحلفاء ، وجنودنا القادمين من افريقيا ، نهضت باريس ضد المحتلين ، في آب ١٩٤٤ ، وتحررت . وهناك ايضاً كان الشيوعيون في الصفوف الاولى من المعركة .

هكذا انقذ الشعب فرنسة مرة اخرى . وخيل الينا ان مستقبلاً مشرقاً ينتظر شعبنا الذي طالما ناضل وتعذب ليمحو اخطاء حكامه وجرائمهم، وقد حدد المجلس الوطني للمقاومة في منهاجه الصادر في ١٥ آذار ١٩٤٤ المباديء التي تساعد على تأسيس ديموقراطية جديدة ارحب افقاً مما عرفته فرنسا في ماضيها . واقترح المجلس ايضاً التدابير التي يجب الاخذ بها ، عقيب تحرير البلاد ، وكان يطالب بمعاقبة الخونة ومصادرة اموالهم ، وتأميم وسائل الانتاج الكبرى التي خضعت في عهد بيتان لشركات الحصر والحكر ، وكان يطالب باشراك العمال في ادارة الاقتصاد ، واقرار حق العمل وحق الراحة ، وانشاء منهج كامل للضمان الاجتماعي ، ورفع مستوى حياة العمال ، واعطاء الشيوخ المتقاعدين ما يكفيهم من المال لحياة شريفة ، وتوسيع دائرة الحقوق السياسية والاجتماعية والاقتصادية في فرنسا ومستعمراتها ...

كانت هذه المطالب جميعها تساعد على تأسيس جمهورية

جديدة ، وكان من شأنها ايضاً ان تمد المؤسسات الديموقراطية ، بفعالية افتقرت اليها قبل الحرب، فسقطت فرنسا في شرك الخونة والانهزاميين .

والمت بالبلاد انتفاضة شعبية كبرى ، وحركتها من اقصاها الى اقصاها ، وكان الناس متعطشين الى حياة جديدة ، وبدأت قوى الرجعية تتستر وتختفي ، فقد كان الذين تعاونوا مع العدو يرتجفون فرقاً من ساعة الحساب . واخذوا يعملون ، في السر، لتحطيم اندفـــاع المواطنين ، وشل عزائم الشعب ومعنوياته ، وشعرت وانا في موسكو ، بهذه المؤامرة ، وحاول الرجعيون ان يؤخروا عودتي الى فرنسة ، بمناورات افعوانية ناعمة ولكن النقمة الشعبية وقفت بالمرصاد واحبطت المؤامرات الرجعية ، وفي السابع والعشرين من تشرين الثاني وصلت الى باريس .

ولم تكن المعركة قد انتهت بعد ، فالالمان مازالوا يهددون ستراسبورج ، وبعض قواتهم تلجأ الى معاقل الشاطيء ، وتحتل دانكرك ، ولوريان ، وسان نازير ، ولاروشيل ، واثر نزولي من الطائرة تأهبت للخطابة في سكان باريس الذين سبق لى ان حذرتهم من عواقب السياسة المونيخية .

وفي مساء ٣٠ تشرين الثاني ١٩٤٤ ، في صـــالة فيل ديف الكبرى ، وامام جماهير كهربتها الحماسة والنشوة فأخذت تصفق وتغني وتهتف، فيما ملأت عشرات الالوف من السكان الطرقات المجاورة ، حتى بلغت ضفاف السين ، وقفت اخطب في الجماهير ،

وانا شدهم الاتحاد لنيل النصر ، وكنت اطلب ، باسم الحزب الشيوعي ، أن يحقق الشعب تسليح الجنود ، واعـــادة بناء صناعتنا، ومعاقبة الخونة، والثقة بالشعب في بناء الدولة، والاعتماد على صداقة الاتحاد السوفياتي ، واعداد نهضة الوطن وخلقهـــا باتحاد القلوب واتحاد العقول ، وكنت أطالب بالعمل في جهد عظيم واخلاص اعظم والنضال في سبيل انشاء فرنسة ديموقراطية حرة مستقلة .

وكانت شعارات حزبنا للمستقبل «الاتحاد والعمل والنضال» وفي كانون الثاني ١٩٤٥ اثناء اجتماع اللجنة المركزية بايثري ، اوضحتُ ضرورة استخدام جميع موارد البلاد وزيادة جهودهـا في سبيل النصر وكانت جميع المناحي التي امامنا ، من اقتصادية وثقافية وسياسية واجتماعية ، تشكل مهمات شاقـة ، من البناء والاصلاح ، تتطلب من الفرنسيين جهوداً صامـدة مستمرة ، وما كان يكفي الشعب التمضمض بعبارات تنادي بعظمة فرنسة وخلود مجدها ، بل كان عليه ايضاً ان يعمل في عزم واصرار ، وان يناضل ، كما ناضلنا ، لطرد العدو المجتاح .

وكان فابيان ، بطل الرماة الاحرار ، والانصـار ، الذي سقط في ساحة الالزاس ، يدلنا ، بحياته واستشهاده ، كيف يحسن ابناء الشعب النضال ، ان تضحيات فابيان وسواه من الشهداء لم تكن عبثاً بل انها ستلهمنا دائماً وتهدينا سواء السبيل.

وفي الطرف الآخر من ساحات القتال كان الجيش الاحمر

الظـــافر يحطم كل عقبة في طريقه ، ويجرف الحواجز امامه ، وفي اواخر نيسان كان يدخل الى برلين ليسحق رأس التنين الهتلري ، ويركز الراية السوفياتية عـلى قصر المستشارية الذي انطلقت منه فيما مضى زوابع الحديد والنار .

فليتعلم من هذا الدرس التاريخي ، اولئك الرأسماليون الذين يريدون ان يستعيدوا الخطة الهتـــلرية في السيطرة على العالم .

خاتمة

ان المناضل الذي يهدي هـذه الصفحات الى رفاقه في العمل والنضال، والى جميع الذين يتعذبون ويجهدون ويأملون ، ليثق اعظم الثقة بأن سفينة الشعب ، ساعة هبوب عواصف جديدة عليها ، لن تغرق في الاعماق ، ولن تجنح نحو صخور العبودية والحرب ، بل انها تنطلق ، كما قال الشاعر ، شطر مستقبل من النور ، والحرية ، والاخوة ، تقودهـا الطبقة العاملة ، ومثلها الاعلى النبيل المتجسّد في المناضلين :

الى المعرفة التي نراهـــا متلألئة في الآفاق ...

الى موت الطغاة ، وزوال الكوارث ... الى النسيان الكريم ...

الى الرخاء والسكون ... الى المرح .. الى الانسان السعيد ينطلق ... هذا المركب المجيد .

---

٥٠ / ٦ / ٥٣

فهرست

صفحة

الفصل الاول

طفولتي ٣

الفصل الثاني

عهد المران ٤١

الفصل الثالث

النضال في سبيل الوحدة ٧٧

الفصل الرابع

فرنسا ازاء الخطر الهتلري ١٠١

الفصل الخامس

الحرب ١٢٢

« مطبعة قلفاط » شارع بشارة الخوري ٣٤ بيروت

obeikandl.com